

شِفَاءُ الرُّوحِ

عيس

لِلْمَرِيضِ وَالْمَجْرُوحِ



أبو طائفة محمد يونس بن عبد الستار

نزير المدينة المنورة (زادها الله شرفاً)

(مكتب ٢٤٠ ٨٣٦٨٣٨٢ منزل ٨٣٨٠٥٣٧)

تقریظ

فضیلة الشیخ عبیدالله محمد أمین کردي - حفظه الله

الحمد لله على نعم الله ، الحمد لله على فضل الله ، الحمد لله على جلال الله وعظمة الله ومغفرة الله ، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله الحمد لله الذي هدانا للإسلام ، وأكرمنا بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام . اللهم صل على سيدنا محمد سيد الأبرار وزين المصطفين الأخيار واجعلنا بالصلاة عليه من الفائزين الناجحين ، ولحوضه من الواردين والشاربين ولسنته من العاملين ولا تحل بيننا وبينه يوم الدين .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مالك يوم الدين له الأمر والنهي وإليه يرجع الأمر كله ، أوجدنا من عدم ، ووالى علينا النعم وجعلنا من خير الأمم ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفوته من خلقه ، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وسلك بالأمة مسلك سعادة الدارين فاجزه اللهم عنا أفضل ماجزيت نبيا عن أمته وأجمعنا به في دار السعادة وفي الفردوس الأعلى .

أما بعد ! أخي القارئ من ذكر وأنتى ! فلقد تصفحت هذا الكتاب الذي أقدم له وهو بين أيديكم بعنوان «شفاء الروح» لمؤلفه أبوظلحة محمد يونس عبدالستار ، وقفت على كلماته وجمله وعباراته ، وظهر لي وتبين أن مؤلفه إنما أراد به أن ينفذ ويتمثل قول الحق سبحانه وتعالى (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) ، لأن مادة هذا الكتاب وإن تشعبت مواضعها إلى حدما فإنما يجمعها شيء واحد ألا وهو الصبر ، وليس الصبر المقصود هنا هو الصبر المتعارف عليه بمعنى التحمل ولكن المقصود به هو الصبر الذي يمثل معنى الثبات مع الله سبحانه على كل حال في الشدة والرخاء وفي السراء والضراء ، ثم الرضى بهذا الثبات وهذا لعمرى هو البلمس الشافي لكل بلاء ينزل بالأرواح والأجساد ، فأى شفاء أعظم من أن تستشعر أن الله معك ، حيث أنك وكلت أمورك عليه ، واسندت نفسك إليه وجعلت كل شيء منك مصيره إليه فقلت : (إنا لله وإنا إليه راجعون) منه صدّرنا وإليه الورود ، وهو معنا إن نحن صبرنا

وصابرننا (إن الله مع الصابرين) ، معية الله شفاء من كل بلاء ، ودواء لكل داء ، وهي خير زاد في دنيا الفناء لعالم البقاء .

لقد أراد المؤلف وفقه الله وجزاه خير الجزاء بهذا الكتاب أن يربط إخوانه المسلمين على كل حال بالله ، في حال القبض والبسط وفي حال الدخن والصفاء ، فيعيشوا دنياهم هذه أرواحا جواله لله وبالله وفي الله ومع الله (واصبر وما صبرك إلا بالله) (إن الله مع الصابرين) (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) .

لقد نكرنا المؤلف وفقه الله في كتابه هذا إلى ما يجب أن يكون عليه المسلم في حال صحته وحال مرضه ، وما يجب أن يحمل من الزاد لدنياه وآخرته ، وقد انتخب لذلك جملة من آيات الكتاب العزيز ، وطائفة من الحديث النبوي الشريف ، يتبع كل ذلك بنماذج مما صح عن الصحابة والتابعين ، وكذا العارفين وسلف الأمة الصالح في تطبيق توجيهات الكتاب والسنة في هذا الباب .

وقد نحا في كل ما ذكر نحو منهج الأمانة في النقل فكان يشير لكل رواية إلى راويها ولكل قصة إلى مصدرها ، وإذا استنبط أحكاما بناها على ما استقصى من اطلاعه على كتب الباب ، وقد يورد أحيانا من الروايات ما لا يرقى إلى درجة الصحيح إلا أن عزاءه في ذلك ومسوغه هو أن إيرادها كان من باب الاستئناس الذي يؤيد الصحيح المقصود ولا يُخل بالمنشود ولم يكن من باب الاستقلال بالحكم أو الاستدلال بالضعيف لذلك فإنه حين يورد قولاً من ذلك يتبعه بما هو أثبت منه ، كما أن المؤلف دأب على إحالة الأقوال إلى مصادرها كي يستزيد من أراد التوسع في أبوابها .

ومجمل ما يمكن قوله نحو الكتاب الذي بين أيدينا من زاويتي أنه مختصر مفيد في بابه يحسن بكل مسلم أن يجعل في مكتبته أو قل في غرفة معيشته نسخة منه تنكره إذا نسي وتنشطه إذا نكر ، تكبح جماحه نحو الدنيا فتشده إلى الآخرة كلما أبعدته صوارف الزمن عن آخرته .

فأسأل الله أن ينفع به مؤلفه وقارئه والساعي على نشره ، وأن يعلمنا ما ينفعنا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً .

عبدالله محمد أمين كردي
المدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

فضيلة الشيخ الدكتور/ محمد المسعودي حفظه الله
الأستاذ المشارك بالجامعة الإسلامية - بالمدينة المنورة

الحمد لله حمداً ينبغي لجلاله ، والشكر له على إنعامه وأفضاله ، نحمدك اللهم ونشكرك على نعمك التي لا تعد ولا تحصى ، وأعظمها نعمة الإسلام التي امتننت بها علينا ، ثم نعمك بالسمع والبصر والفؤاد والصحة والعافية والجوارح والحواس كلها واكتساب المنافع الحسية والمعنوية نعم تترى ، وفضائل لا تحصى ولا تحصى ثناء عليك . وقد جعل الله لهذه النعم بعض التمحيص والاختبار ابتلاء منه على شكر النعمة وزيادة في الأجر ، والمثوبة لعباده وتكفيراً لسيئاتهم ، قال تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) ، وقال تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) . وقال صلى الله عليه وسلم : «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته ضراء شدة فذكر فکان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فکان خيراً له» . رواه مسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم : «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها» رواه البخاري . وقد جعل الله لنا حصناً نتقى به ، وملأنا نفعاً إليه عند حلول المصائب والشدائد ألا وهو الصبر وهو حبس النفس وضبطها وإجامها بلجام الشرع ، ومدح الله الصبر والصابرين في مواضع عديدة من كتابه وعلى لسان رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، وأخبر أن في الصبر الفلاح والجمع بين خيرى الدنيا والآخرة فمن نتانجه وثمراته المخارج من المآزق ، قال تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) .

ومنها : الظفر بالأعداء قال تعالى : (فاصبر إن العاقبة للمتقين) .
ومنها : الظفر بالمراد قال تعالى : (وتمت كلمة ربك الحسنی على بنی اسرائیل بما صبروا) .
ومنها الإمامة على الناس قال تعالى : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) .

ومنها : الثناء من الله جلت عظمته قال تعالى : (إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) .

ومنها : البشارة والصلاة والرحمة والاهتداء قال تعالى : (وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) .

ومنها : المحبة من الله تعالى قال الله عزوجل : (والله يحب الصابرين) .
ومنها : الدرجات العلا من الجنة قال تعالى : (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا) إلى غير ذلك من فوائد الصبر ومزاياه .

ولقد حسبتني أترك المجال لصاحب المؤلف العظيم الرجل الفاضل الذي ما برح يطالعنا من وقت لآخر بحصائد أقلامه ونتائج أفكاره في أعظم ماتحتاجه النفس البشرية المتعلقة بالدنيا وملذاتها فينقلها إلى التفكير والتدبر والإقبال إلى الله سبحانه والدار الآخرة .

وما نحن نعيش مع هذا الكتاب «شفاء الروح للمريض والمجروح» نعزى أنفسنا بسير الصالحين والمحتسبين وكلام رب العالمين وهدى سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه ما يحيط بنا من الأقدار والمصائب والأمراض ونوائب الزمان وطوارق الحدثنان .

وحسب المؤلف ابداعه وجمعه لهذه الفرائد واقتناص هذه الشوارد ، وهي من أعظم العبر وأجمل الفكر ، وهي مشتملة على آيات ومواعظ قرآنية وأحاديث نبوية فيها الصحيح والحسن والضعيف الذي يحتج به أكثر العلماء في الرغائب والمواعظ وسير عطرة من سير السادة الفضلاء من الصحابة والتابعين والعباد والزهاد .

نسأل الله أن يجعلنا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، وأن يجعلنا ويزيننا بحلى الصبر والإيمان وبرد اليقين وغنى النفس عما في أيدي الناس والنظر والتعلق بما عند الله (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) (والآخرة خير وأبقى) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيد الأولين والآخرين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدكتور : محمد المسعودي
الجامعة الإسلامية
المدينة النبوية
على صاحبها الصلاة والتحية

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
وَعَلَى آلِهِ

الْمُقْتَدِرِينَ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .
أما بعد : فإن الله تعالى جعل الموت محتوماً على جميع العباد ، فهو نهاية المرء وغاية الاقتصاد من دار الاعتداد ، قدّر مقادير الخلائق وأقسامها ، وبعث أمراضها وأسقامها ، قضى فأسقم الصحيح وعافى السقيم ، وكم من صحيح مات من غير علة ، وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر ولا يأتيه الموت وهو الذي قسم عباده قسمين : طائع وطاغي وجعل مآلهم إلى دارين : دار النعيم ودار الجحيم ، فلا مفرّ لأحد من الموت ولا أمان ، لقوله تعالى : ﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَأَنْزَلْنَا فِيهَا الْوَيْلَ وَالْجَلَدَ الْبَاسَ لِمَنْ كَفَرَ بَعْدَ مَا عَاهَدْنَا مِنْهُمْ ثُمَّ طَبَعْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ .
والفقير: وكل ذلك بتقدير العليم الخبير ﴿وما يعمر من معمر ولا يُنقص من

عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴿١﴾ وقال قائل :
لو كان في الدنيا بقاء لساكن
لكان رسول الله فيها مخلدا
وما أحد ينجو من الموت سالما
وسهم المنايا قد أصاب محمدا
صلوات الله وسلامه عليه

فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والحازم من بادر بالعمل قبل
حلول القوت ، والمسلم من استسلم للقضاء والقدر ، والمؤمن من تيقن بصيره
الثواب على المصائب والنوائب والضرر .

ولما كانت المصائب والأمراض على اختلاف أنواعها من موت وغيره من
نوائب الزمان خطباً مؤلماً موجعاً ، وأمرأ مهولاً مزعجاً ، وردت الأحاديث
والآثار بما لمن أصيب : من المقامات ، والمحتسب الصابر عليها ببشارة الجنات ،
قال بعض السلف : لو لا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس .

فأحببت أن أجمع كتاباً مسلماً وشفاءاً لقلوب المحزونين ومفرجاً لكرب
الملذوعين ، وليكون سبباً لسؤل الشخص عن الدنيا ، ومرغباً له في الآخرة ،
وسميته بـ«شفاء الروح للمريض والمجروح» ، فما كان فيه من صواب فمن الله
ورسوله ﷺ ، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان الرجيم .

والله سبحانه المستول أن يوفقني لإتمامه ، بفضله وامتنانه ، وأن يجعله
خالصاً لوجهه الكريم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

أبو طلحة

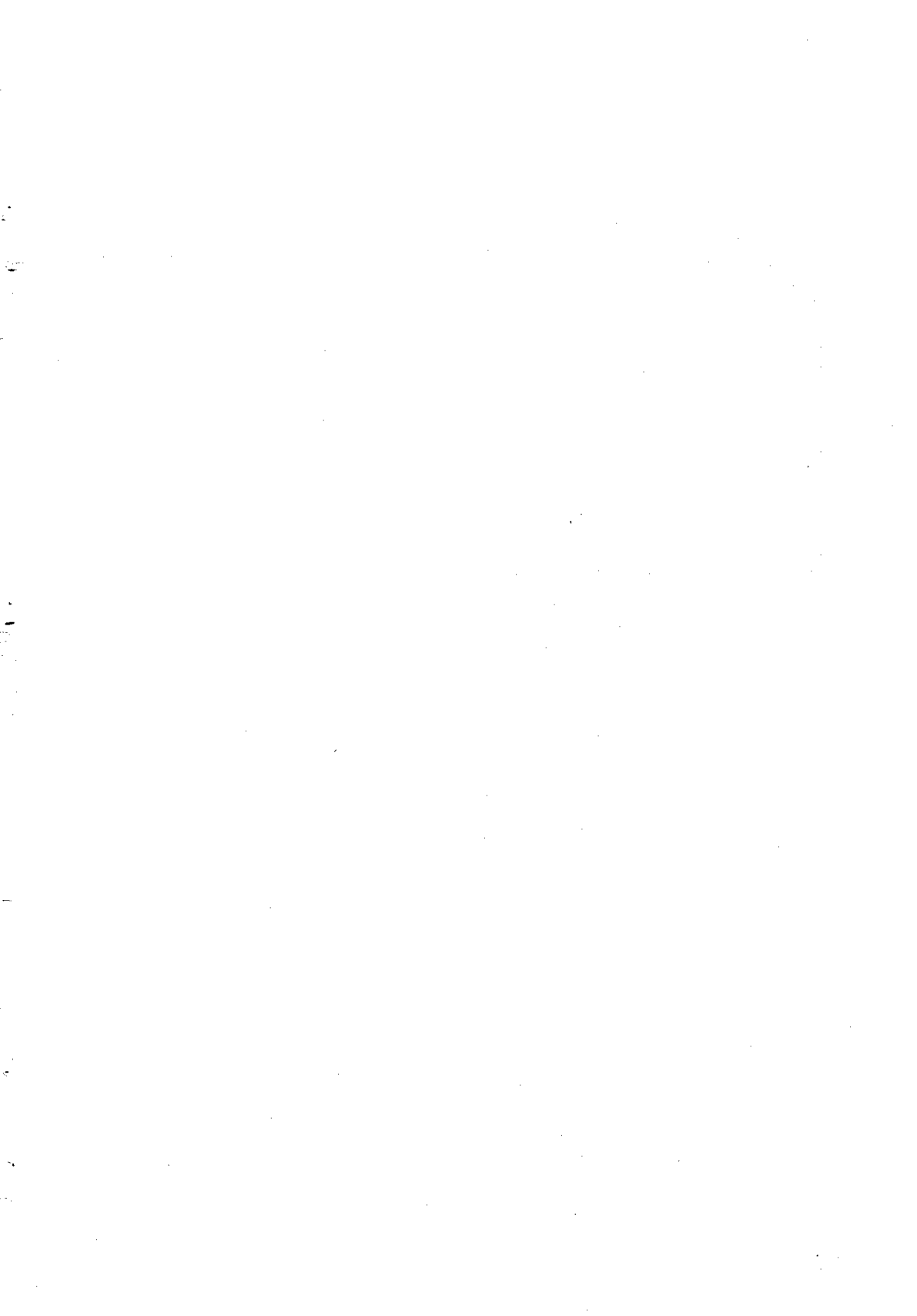
محمد يونس عبدالستار

الباب الأول

المسلم يؤجر على المرض

حتى الشوكة يشاكها

وعلى غير ذلك من البلاء والنوائب



المسلم يؤجر على المرض حتى الشوكة يشاكها وعلى غير ذلك من البلاء والنوائب



عن أبي سعيد الخدري وعن أبي هريرة - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال : ما يُصيب المسلم من نصبٍ ولا وصبٍ ^(١) ولا همٍّ ولا حزنٍ ولا أذىٍ ولا غمٍّ ^(٢) حتى الشوكة يُشاكها إلا كفرَّ الله بها من خطاياها ^(٣) .

وعن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه وهو يوعك وعكاً شديداً ، وقلت : إنك لتوعك وعكاً شديداً ، قلت : إن ذلك بأن لك أجرين ؟ قال : أجل ، ما من مسلم

-
- (١) قوله «من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ» بفتحين فيهما والأول : التعب والألم الذي يصيب البدن من جراحة وغيرها ، والثاني : الألم اللازم والسقم الدائم على ما يفهم من النهاية . مرقاة .
- (٢) قوله «ولا أذىٍ ولا غمٍّ» قال ابن حجر - رحمه الله - : الأذى كل ما لا يلائم النفس فهو أعم من الكل ، والظاهر أنه مختص بما يتأذى به الإنسان من غيره ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿لَتبْلُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنِ الَّذِينَ أُشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا﴾ ومنه قوله تعالى : ﴿والَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كَتَبْنَا﴾ .
- والهم : الذي يهيم الرجل أى يذيه من هممت الشحم إذا أذتته ، والحزن : هو الذي يظهر منه في القلب خشونة ، يقال : مكان حزن أى خشن فالهم والحزن ما يصيب القلب من الألم بفوت محبوب إلا أن الغم أشدها ، والحزن أسهلها ، وقيل : الهم يختص بما هو آت ، والحزن بما فات . انتهى كلام ابن حجر .
- (٣) والحديث رواه البخاري في صحيحه : كتاب المرضى «باب ما جاء في كفارة المرض» .

يصبیه أذىً إلا حاتَّ الله عنه خطاياہ كما تحاتُّ ورقُ الشجر . صحيح البخاري «كتاب المرضی باب ماجاء في كفارة المرض» .

وعنه - رضي الله عنه - قال دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك ، فقلت : يارسول الله ! إنك توعدك وعكاً شديداً ، قال : أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم ، قلت : ذلك بأن لك أجرين ؟ قال : أجل ذلك كذلك ، مامن مسلم يصبیه أذىً شوكةً فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته كما تحطُّ الشجرةُ ورقها . صحيح البخاري «كتاب المرضی» .

قوله ﷺ : «إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها» : قال في المرقاة : قال الطيبي : شبه حال المريض وإصابة المرض جسده ثم محو السيئات عنه سريعاً بحالة الشجرة وهبوب الرياح الخريفية وتناثر الأوراق منها فهو تشبيه تمثيلي ، ووجه الشبه الإزالة الكلية على سبيل السرعة . قال ابن الملك : وفيه إشارة عظيمة لأن كل مسلم لا يخلو عن كونه متأدياً انتهى مذكوره في المرقاة .

وعن كعب بن مالك - رضي الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ : مثل المؤمن كمثل الخامة (أى الغصنة اللينة) من الزرع تفيئها الرياح (أى تميلها يميناً وشمالاً) تصرعها مرة وتعددها أخرى حتى يأتي أجله ، ومثل المنافق كمثل الأرزة - أى الصنوبر - المجدية لا يصبیها شيء حتى يكون انجاعها مرة واحدة . متفق عليه كما في المشكاة «باب عيادة المريض وثواب المرض» .

قوله «وتعدّها أخرى حتى يأتي أجله» قال في المرقاة : أى تارة أخرى
يعنى يصيب المؤمن من أنواع المشقة من الخوف والجوع والمرض وغيرها حتى
يأتي أجله أى يموت .

والحاصل أن المؤمن لا يخلو من علة وقلة أو ذلة كما روى ، وكل ذلك من
علامة السعادة قاله ابن الملك يعنى بشرط الصبر والرضا والشكر .
وأخرج أحمد عن أبي بن كعب مرفوعاً : مثل المؤمن مثل الحامة تحمر مرة
وتصفّر أخرى . انتهى .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ : مثل
المؤمن كمثل الزرع لاتزال الريح تميله ، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء
ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لاتهتز - أى لاتتحرك - حتى تُستحصد .
متفق عليه كما في المشكاة «باب عيادة المريض وثواب المرض» .

قوله «مثل المؤمن كمثل الزرع الخ» قال في المرقاة : ولعل الحكمة في
ذلك ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام : أن الله تعالى أوحى إلى الدنيا أن تمرري
وتكدرى على أوليائى حتى يحبوا لقائى ، ومنه الحديث المشهور : الدنيا سجن
المؤمن وجنة الكافر .

وفيه إشارة إلى أن المؤمن ينبغى أن يرى نفسه عارية معزولة
عن إستعمال اللذات معروضة على الحوادث . انتهى ما ذكره
في المرقاة .

وعن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا مرض العبد
أو سافر كتب له بمثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً . رواه البخاري كما في
المشكاة «باب عيادة المريض وثواب المرض» .

وعن جابر - رضي الله عنه - قال : دخل رسول الله ﷺ على أم السائب ، فقال : مالك تَزْفَرُفِينِ ؟ قالت : الحمى ، لإبارك الله فيها ، فقال : لا تسمى الحمى ، فإنها تُذهب خطايا بني آدم كما يُذهب الكيرُ نخبث الحديد . رواه مسلم كما في المشكاة «باب عيادة المريض وثواب المرض» . قال ميرك : ورواه الترمذي في سننه كما في المرقاة .

قوله «تزفرفين» وفي نسخة صحيحة بالراءين المهملتين على بناء الفاعل ، قال الطيبي : زرف الطائر بجناحيه إذا بسطهما عند السقوط على شيء ، والمعنى : مالك ترتعدين ؟ كما في المرقاة .

قال صاحب المرقاة شارحاً لهذا الحديث :

وذكر السيوطي - رحمه الله - «في كشف الغمى في أخبار الحمى» عن الحسن مرفوعاً قال : إن الله ليكفر عن المؤمن خطاياهُ كلها بحمى ليلة . قال ابن المبارك : هذا من جيد الحديث .

وعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال : حمى ليلة كفارة سنة .
وعن أبي أمامة مرفوعاً الحمى كير من جهنم وهي نصيب المؤمن من النار .
وفي حديث : أن الحمى حمى أمتى من جهنم .

وعن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال : يارسول الله ! ماجزاء الحمى ؟ قال : تجرى الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم أو ضرب عليه عرق ، قال أبي : اللهم إني أسألك حمى لا تمنعني خروجاً في سبيلك ولا خروجاً إلى بيتك ومسجد نبيك - ﷺ - . قال الراوى : فلم يمش أبي قط إلا وبه حمى . انتهى ما ذكره صاحب المرقاة .

والحديث الأخير هذا ذكره الحافظ ابن كثير بأوضح من هذا حيث قال :

قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد بن إسحاق حدثني زينب بنت كعب بن عجرة عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : أرأيت هذه الأمراض التي تصيبنا ، ما لنا بها ؟ قال : كفارات ، قال أبي : وإن قلت ؟ قال : حتى الشوكة فما فوقها ، قالت : فدعا أبي على نفسه أنه لا يفارقه الوعك حتى يموت في أن لا يشغله عن حج ولا عمرة ولا جهاد في سبيل الله ولا صلاة مكتوبة في جماعة ، فما مسه إنسان حتى وجد حره حتى مات رضي الله عنه . تفرد به أحمد . راجع التفسير لابن كثير ١ / ٥٦٠ .

قال الراقم : أحب وأختار أبي بن كعب رضي الله عنه حُسنَ ثواب الآخرة بمرض دنياه ، وآثر ما يبقى على ما يفنى ، لأنه قد علم أن لا عيش إلا عيش الآخرة ، واللهُ عنده حسن الثواب . وفي الحديث الصحيح : إنما الأعمال بالنيات . وقد قال الله تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ .

وقال جلت عظمته : ﴿ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين ﴾ .

قال أبو داود الطيالسي حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن ابنته أنها سألت عائشة عن هذه الآية ﴿ من يعمل سوءاً يُجْزَ به ﴾ فقالت : ما سألتني أحد عن هذه الآية منذ سألت عنها رسول الله ﷺ ، سألت رسول الله ﷺ فقال : يا عائشة ! هذه معاتبة الله للعبد مما يصيبه من الحمى والنكبة

والشوكة ، حتى البضاعة فيضعها في كفه ، فيفزع لها فيجدها في جيبه ، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما أن الذهب يخرج من الكبر . راجع التفسير لابن كثير ١ / ٥٥٩ ، وأورده الإمام الترمذي في سننه أيضاً كما في المشكاة «باب عيادة المريض وثواب المرض» .

وعن عبدالله بن عمرو - رضي الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ : إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض ، قيل للملك الموكل به أكتب له مثل عمله إذا كان طليقاً - أى غير مقيد بالمرض - حتى أطلقه أو أكفته إلى - أى أضمه إليّ بالموت - . رواه في شرح السنة كما في المشكاة «باب عيادة المريض وثواب المرض» .

وعن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : إذا ابتلى المسلم ببلاء في جسده ، قيل للملك : أكتب له صالح عمله الذي كان يعمل ، فإن شفاه غسله وطهره ، وإن قبضه غفرله ورحمه . رواه في شرح السنة كما في المشكاة «باب عيادة المريض وثواب المرض» .

قال في المرقاة : قال ميرك : رواه أحمد بإسناد صحيح ليس فيه إلا عاصم القارى روى له الأربعة ، وأخرج له الشيخان متابعة .

وعن أبي موسى - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : لا يصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب ، وما يعفو الله تعالى عنه أكثر ، وقرأ ﴿ ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ رواه الترمذي كما في المشكاة باب «عيادة المريض وثواب المرض» .

قوله «فما فوقها أو دونها» : قال في المرقاة : واختلفوا في معناه ، فالجمهور على أن المعنى «فما فوقها» في الكبر كالذباب والعنكبوت .

وقال أبو عبيدة : أى فما دونها كما يقال : فلان جاهل فيقال : وفوق ذلك ، أى وأجهل .

قال الإمام الرازي : وهو قول أكثر المحققين لكن مختار الكشاف والبيضاوى أن معناه : ما زاد عليها في الجثة كالذباب ، أو في المعنى الذي جعلت فيه مثلاً وهو الصغر والحقارة كجناحها .

قال البيضاوي ونظيره في الاحتمالين ماروى : أن رجلاً بمنى خر على طنب فسقط ، فقالت عائشة رضي الله عنها : سمعت رسول الله ﷺ قال : مامن مسلم يشاك بشوكة فما فوقها إلا كتب الله له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة . فإنه يحتمل ما تجاوز الشوكة في الألم كالخروج وما زاد عليها في القلة كنخبة التملة لقوله عليه الصلاة والسلام : ما أصاب المؤمن من مكروه ، فهو لخطاياها حتى نخبة التملة - أى قرصتها - اه .

والحديث الأول رواه البخاري وغيره ، وأما الثاني فقال العسقلاني : لم أجده انتهى مذكوره في المرقاة .

وقوله «ما يعفو الله تعالى عنه أكثر» قال في المرقاة : أى الذي يغفره ويمحوه عنه أكثر مما يجازيه ، قال ميرك نقلاً عن زين العرب : أى لاتصيب العبد في الدنيا مصيبة إلا بسبب ذنب صدر منه ، وتكون تلك المصيبة التي لحقت في الدنيا كفارة لذنبه ، والذي يعفو الله عنه من الذنوب من غير أن يجازيه في الدنيا والآخرة أكثر من ذلك ، فانظر إلى حسن لطف الله تعالى بعباده . انتهى مذكوره في المرقاة .

قوله «من مصيبة» أى من مرض وشدة وهلاك وتلف في أنفسكم وأموالكم وهذا يختص بالمذنبين ، وأما غيرهم فإنما تصيبهم لرفع درجاتهم . مرقاة .

وعن جابر^(١) بن عتيك قال قال رسول الله ﷺ : الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله ، المطعون شهيد ، والغريق شهيد^(٢) ، وصاحب ذات الجنب شهيد^(٣) ، والمبطون شهيد ، وصاحب الحريق شهيد ، والذي يموت تحت الهدم شهيد ، والمرأة تموت بجمع شهيد^(٤) . رواد مالك وأبو داود والنسائي كما في المشكاة «باب عيادة المريض وثواب المرض» .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : الشهداء خمسة : المطعون والمبطون والغريق وصاحب الهدم والشهيد في سبيل الله . متفق عليه كما في المشكاة «كتاب الجنائز» .

(١) قوله «جابر بن عتيك» بفتح العين وكسر التاء كنيته أبو عبدالله الأنصاري ، شهد بداراً وجميع المشاهد بعدها . مرقاة .

(٢) قوله «والغريق شهيد» أى إذا كان سفره طاعة . مرقاة .

(٣) قوله «وصاحب ذات الجنب شهيد» وهى قرحة أو قروح تصيب الإنسان داخل جنبه ثم تفتح ويسكن الوجع ، وذلك وقت الهلاك ، ومن علاماتها الوجع تحت الأضلاع ، وضيق النفس مع ملازمة الحمى والسعال ، وهى فى النساء أكثر . مرقاة .

(٤) قوله «المرأة تموت بجمع شهيد» فى النهاية : أى تموت وفى بطنها ولد ، وقيل تموت بكاراً ، والجمع بالضم بمعنى : المجموع كالذخر بمعنى المدخور ، وكسر الكسائى الجيم أى ماتت مع شيء مجموع فيها غير منفصل عنها من حمل أو بكاراة أو غير مطمونة ذكره الطيبى ، وقال بعض الشراح : الجمع بضم الجيم وكسرها والرواية بالضم أى تموت وولدها فى بطنها ، وقيل : هو الطلق ، وقيل بأن تموت بالولادة ، وقيل بسبب بقاء المشيمة فى جوفها وهى المسماة بالخلاص ، وقيل معناه : تموت بجمع من زوجها أى ماتت بكاراً لم يفتنضها زوجها . قال ميرك : ورواه ابن ماجه ، وقال النووى : هذا حديث صحيح وإن لم يخرجاه الشيخان بلا خلاف . مرقاة .

وعن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : الطاعون شهادة كل مسلم . متفق عليه كما في المشكاة «باب عيادة المريض وثواب المرض» .
قوله : «الطاعون» قال في اللغات : قال الخليل : الطاعون الوباء ، وقال ابن الأثير : الطاعون المرض العام والوباء الذي يفسد الهواء فيفسد به الأمزجة والأبدان ، وقال القاضي أبو بكر ابن العربي : الطاعون الوجع الغالب الذي يطفئ الروح ، وقال القاضي عياض : الطاعون القروح الخارجة في الجسد . وقال النووي : هو بثر وورم مؤلم جداً يخرج مع لخب ويسود ماحوله ويحضر ويحمر حمرة شديدة يتفسخه كدرة ويحصل معه خفقان وقيء ، ويخرج غالباً في المراق والآباط ، وقد يخرج في الأيدي والأصابع وسائر الجسد .
وقال ابن سينا : الطاعون مادة سمية تحدث ورماً . ذكره الشيخ أحمد على السهارنفوري محشى صحيح البخاري في حاشيته على مشكاة المصابيح .
رحمهما الله .

قال في المرقاة : وقيل : الطاعون هو الموت بالوباء ، والوباء الموت العام والمرض العام .

وأخرج أحمد عن أبي موسى مرفوعاً : فناء أمتي بالظعن والطاعون ، قيل : يارسول الله هذا الظعن قد عرفناه فما الطاعون ؟ قال : وخز أعدائكم من الجن وفي كل شهادة . انتهى ما ذكره صاحب المرقاة .

قال في المرقاة : واعلم أن الشهداء الحكمية كثيرة وردت في أحاديث شهيرة جمعها السيوطي في كراسة سماها «أبواب السعادة في أسباب الشهادة» منها ما ذكر :

ومنها : صاحب ذات الجنب ، والحريق ، والمرأة تموت بجمع أى في بطنها ولد ،

وقيل تموت بكرةً ، ومنها المرأة في حملها إلى وضعها إلى فصاها ، ومنها صاحب السل أى الدق ، والغريب ، والمسافر ، والمصروع عن دابته في سبيل الله ، والمرابط والمتردى ، ومن تأكله السباع ، ومن قتل دون ماله وأهله أودينه أو دمه أو مظلته ، ومنها الميت في سبيل الله والمرعوب على فراشه في سبيل الله .

وعن علي رضي الله عنه من حبسه السلطان ظلماً فمات في السجن فهو شهيد ، ومن ضرب فمات في الضرب فهو شهيد الخ .
وعن أنس مرفوعاً : الحمى شهادة .

وعن أبي عبيدة بن الجراح قال قلت : يارسول الله ! أي الشهداء أكرم على الله ؟ قال : رجل قام إلى إمام جائر فأمره بمعروف ونهاه عن منكر فقتله .

وعن أبي موسى من وقصه فرسه أو بعيره أو لدغته هامة فهو شهيد .
وعنه عليه الصلاة والسلام : المائد في البحر الذي يصيبه القىء له أجر شهيد .

قوله «المائد» اسم فاعل من ماد يمد إذا مال وتحرك ، وهو الذي يدور رأسه من ريح البحر واضطراب السفينة بالأمواج كذا في النهاية .
وعن ابن مسعود مرفوعاً : إن الله كتب الغيرة على النساء ، والجهاد على الرجال ، فمن صبر منهن كان لها أجر شهيد .

وعن ابن عمر مرفوعاً : من صلى الضحى وصام ثلاثة أيام من الشهر ولم يترك الوتر في حضر ولا سفر كتب له أجر شهيد .

ومنها التمسك بالسنة عند فساد الأمة . ومنها من مات في طلب العلم
 والمؤذن المحتسب ، ومن عاش مداريا ، ومن جلب طعاماً إلى المسلمين ، ومن
 سعى على امرأته وولده وماملكت يمينه وغير ذلك مما يطول ذكره فكل من كثر
 أسباب شهادته زيد له في فتح أبواب سعاده . انتهى ما ذكره في المرقاة .
 وروى أبو داود عن سهل بن حنيف عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ :
 من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه .
 راجع السنن لأبي داود «باب الاستغفار» ورواه مسلم كما في المشكاة «كتاب
 الجهاد» .

قوله : «بلغه الله منازل الشهداء» فيه أن المرء يشاب بنيته وأنه
 يشاب بعين ما يشاب على الفعل أو بمثله ونظيره ، وأقول في قوله صلى الله عليه
 وسلم : بلغه الله منازل الشهداء . نوع إيماء إلى الثاني . من التعليق المحمود
 على سنن أبي داود للشيخ فخر الحسن الكنكوهي رحمه الله .
 قال الراقم : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده من كانوا وحيث
 كانوا وهو على كل شيء قدير ، فعلينا الاجتهاد في حصول هذه الدرجات
 السنية والمراتب العليا بالعمل والنية ، اللهم ارزقنا شهادة في سبيلك واجعل
 قبورنا ببلد رسولك ﷺ آمين يارب العالمين .

قد ذكرنا فضل الطاعون فيما سبق من الأحاديث ، الآن نذكر بعض
 ماجرى من الطاعون في الإسلام ، والمقصود بذكره هنا التصبير والحمل على
 التأسى وأن مصيبة الإنسان قليلة بالنسبة إلى ماجرى قبله .
 ذكر النووي رحمه الله في تأليفه «كتاب الأذكار» في «باب التعزية» بعض
 ماجرى من الطاعون في الإسلام حيث قال :

قال أبو الحسن المدائني كانت الطواعين المشهورة العظام في الإسلام خمسة :

طاعون شيرويه بالمدائن في عهد رسول الله ﷺ سنة ست من الهجرة .
ثم طاعون عمواس في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان بالشام ،
مات فيه خمسة وعشرون ألفاً .

ثم طاعون في زمن ابن الزبير في شوال سنة تسع وستين مات في ثلاثة أيام
كل يوم سبعون ألفاً ، مات فيه لأنس بن مالك رضي الله عنه ثلاثة وثمانون
ابناً ، وقيل ثلاثة وسبعون ابناً ، ومات لعبدالرحمن بن أبي بكر أربعة أبناء .
ثم طاعون الفتيات في شوال سنة سبع وثمانين .

ثم طاعون إحدى وثلاثين ومائة في رجب واشتد في رمضان وكان يحصى في
سكة المرید في كل يوم ألف جنازة ، ثم خف في شوال .

وكان بالكوفة طاعون سنة خمسين وفيه توفي المغيرة بن شعبة ، هذا آخر
كلام المدائني .

وذكر ابن قتيبة في كتابه المعارف عن الأصمعي في عدد الطواعين نحو
هذا ، وفيه زيادة ونقص .

قال : وسمى طاعون الفتيات لأنه بدأ في العذارى بالبصرة وواسط والشام
والكوفة ، ويقال له طاعون الأشراف ، لِمَا مات فيه من الأشراف .

قال : ولم يقع بالمدينة ولا مكة طاعون قط ، وهذا الباب واسع وفيما ذكرته
تنبه على ما تركته ، وقد ذكرت هذا الفصل أبسط من هذا في أول شرح
صحيح مسلم رحمه الله وبالله التوفيق . انتهى ما قاله النووي رحمه الله .

وعن سعد قال : سئل النبي ﷺ أي الناس أشد بلاء؟ قال : الأنبياء
ثم الأمثل فالأمثل ، يتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلماً
اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة هون عليه فما زال كذلك حتى يمشي

على الأرض وما له ذنب . رواه الترمذي وابن ماجه والدارمي ، وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح كما في المشكاة «باب عيادة المريض وثواب المرض» .
قوله «الأنبياء الخ» أى هم أشد في الابتلاء ، لأنهم يتلذذون بالبلاء كما يتلذذ غيرهم بالنعماء ، ولأنهم لو لم يبتلوا لتوهم فيهم الألوهية ، وليتوهن على الأمة الصبر على البلية . وقوله «ثم الأمثل فالأمثل» : أى الأشبه بهم أو الأفضل من غيرهم ، قال ابن الملك : أى الأشراف بالأشراف والأعلى فالأعلى رتبة ومنزلة ، يعنى من هو أقرب إلى الله بلاؤه أشد ليكون ثوابه أكثر . مرقاة .

قوله «هون عليه» أى البلاء ، قال ابن الملك : ليكون ثوابه أقل .
أقول : بل رحمة عليه ولطفاً به فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ولو لا التخفيف في بلائه لخشى عليه الكفر من ابتلائه ، ولذا قال صلى الله عليه وآله وسلم : كاد الفقر أن يكون كفراً . مرقاة .

وعن أنس - رضي الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ : إذا أراد الله تعالى بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافيه به يوم القيامة . رواه الترمذي كما في المشكاة «باب عيادة المريض وثواب المرض» .

قوله «عجل له العقوبة في الدنيا» : أى الابتلاء بالمكارة في الدنيا ، لأن عذاب الآخرة أشد وأبقى . مرقاة .

وعنه - رضي الله عنه - قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن عظيم الجزاء مع عظيم البلاء ، وإن الله عزوجل إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط . رواه الترمذي وابن ماجه .
قوله «إن عظيم الجزاء» بضم العين وسكون الظاء ، وقيل بكسر

ثم فتح أى عظمة الأجر وكثرة الثواب مقرون مع عظم البلاء كيفية وكمية جزاءً وفاقاً وأجرأ طباقاً . مرقاة .

قوله «فمن رضى» أى بالبلاء فله الرضى ، أى فليعلم أن له الرضا من المولى أو فيحصل له الرضا في الآخرة والأولى . كما في المرقاة .

قال الراقم : من صبر على النوائب والبلاء فقد فاز بالرضا وصار من جملة أرباب الارتضاء وما أحسن قول من قال :

يا أيها الراضي بأحكامنا لا بد أن تحمد عقبي الرضا
فوض إلينا وابق مستسلما فالراحة العظمى لمن فوضا
لا ينعم المرء بمحبوبه حتى يرى الراحة فيما قضى

قوله «ومن سخط» قال في المرقاة : أى كرد بلاء الله ، وفزع ولم يرض بقضائه فله السخط من الله أولاً ، والغضب عليه آخرأ ، واعلم أن الرضا والسخط حالان متعلقان بالقلب ، فكثير ممن له أنين من وجع وشدة مرض وقلبه مشحون من الرضا والتسليم لأمر الله هذا .

قال ميرك : أقول وللحديث محل آخر وهو : أن نزول البلاء علامة المحبة ، فمن رضى بالبلاء صار محبوباً حقيقياً له تعالى ، ومن سخط صار مسخوطاً عليه ، تأمل .

ثم قال الطيبي : فهم منه أن رضا الله مسبق برضاء العبد ، ومحال أن يرضى العبد عن الله تعالى إلا بعد رضاء الله تعالى كما قال تعالى : ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ ، ومحال أن يحصل رضاء الله ، ولا يحصل رضا العبد في الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾ فعن الله الرضاء أزلاً وأبداً وسابقاً ولاحقاً ، مرقاة .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ لا يزال
البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في نفسه وماله وولده حتى يلقي الله تعالى وماعليه من
خطيئة . رواد الترمذي وروى مالك نحوه ، وقال الترمذي : هذا حديث
حسن صحيح كما في المشكاة «باب عيادة المريض وثواب المرض» .

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : سمعت النبي ﷺ يقول :
إن الله قال : إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه فصبر عَوْضْتُهُ منهما الجنة ، يريد
عينيه . صحيح البخاري «كتاب المرضى» «باب فضل من ذهب بصره» .

قوله : «بحببتيه» قال الشيخ المحدث أحمد على السهانهفوري في
حاشيته على البخاري : بالثنية وقد فسرهما آخر الحديث بقوله : يريد عينيه ،
والمراد بالحببيتين المحبوتان لأنهما أحب أعضاء الإنسان إليه لما يحصل بفقدتهما
من الأسف على فوات رؤية ما يريد رؤيته من خير يسر به أو شر فيجتنبه ، وقوله
«فصبر» فالمراد به أن يصبر مستحضراً ما وعد الله به للصابر من الثواب لا أنه
يصبر مجرداً عن ذلك لأن الأعمال بالنيات . والظاهر أن المراد بصبوه أن
لا يشتكى ولا يقلق ولا يجهر عدم الرضا به ، وابتلاء الله تعالى عبده في الدنيا
ليس من سخط عليه بل إما لدفع مكروه أو لكفارة ذنوب أو لرفع منزلة . انتهى .
قال في المرقاة : وفضل الله أوسع من ذلك ، وينبغي لمن ابتلى بذلك أن
يتأسى بأحوال الأكابر من الأنبياء والأولياء الذين حصل لهم هذا البلاء فصبروا
عليه ورضوا به بل عدّوه نعمة ، ومن ثمّ لمّا ابتلى به حبر الأمة وترجمان القرآن
عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - أنشد :

إن يذهب الله من عيني نورهما

ففي لساني وقلبي للهدى نور

وعن شداد بن أوس والصنابحي أنهما دخلا على رجل مريض يعودانه فقالا له : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت بنعمة الله ، قال شداد : أبشر بكفارات السيئات وحط الخطايا ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله عزوجل يقول : أنا إذا ابتليت عبداً من عبادي مؤمناً فحمدني على ما ابتليته فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته أمه من الخطايا ، ويقول الرب تبارك وتعالى أنا قيدت عبدي وابتليته فاجرو له ما كنتم تجرون له وهو صحيح . رواه أحمد كما في المشكاة «باب عيادة المريض وثواب المرض» .

وعن محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده ثم صبره على ذلك حتى يُبلغه المنزلة التي سبقت له من الله . رواه أحمد وأبوداود كما في المشكاة .

وعن عبدالله بن شحير قال : قال رسول الله ﷺ : مثل - أى صور - ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية ، إن أخطأته المنايا وقع في الهرم حتى يموت . رواه الترمذي ، وقال : هذا حديث غريب كما في المشكاة . قوله : «إلى جنبه تسع وتسعون منية» أى بقره تسع وتسعون بلية مهلكة ، قال بعضهم : أى سبب موت . كما في المرقاة .

قوله : «إن أخطأته المنايا» أى إن جاوزته فرضاً أسباب المنية من الأمراض والجوع والغرق والحرق وغير ذلك مرة بعد أخرى وقع في الهرم أى في مجمع المنايا ومنبع البلايا . مرقاة .

وقال في المرقاة شارحاً لهذا الحديث المذكور : قال بعضهم أن أصل

حلقة الإنسان من شأنه أن لا تفارقه المصائب والبلايا والأمراض والأدواء كما قيل : البرايا أهداف البلايا ، وكما قال صاحب الحكم ابن عطاء : مادمت في هذه الدار لا تستغرب وقوع الأكدار ، فإن أخطأته تلك النوائب على سبيل الندرة أدركه من الأدواء الداء الذي لا دواء له .

وحاصله أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، فينبغي للمؤمن أن يكون صابراً على حكم الله ، راضياً بما قدّر الله تعالى وقضاه .
فقد روى في الحديث القدسي : من لم يرض بقضائي ، ولم يصبر على بلائي ، فليتمس ربّاً سوائى . انتهى .

وعن عامر الرام - رضي الله عنه - قال ذكر رسول الله ﷺ الأسقام ، فقال : إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم عافاه الله عزوجل منه ، كان كفارة لما مضى من ذنوبه ، وموعظة له فيما يستقبل ، وإن المنافق إذا مرض ثم أعفى كان كالبعير عقله أهله ثم أرسلود ، فلم يدر لِمِ عقلود ولم أرسلود ، فقال رجل يارسول الله ! وما الأسقام ؟ والله ما مرضتُ قط ، فقال : قم عنّا فلست منا . رواد أبو داود كما في المشكاة كتاب الجنائز .

قوله «فلست منّا» قال في المرقاة : أى لست من أهل طريقتنا حيث لم تبطل ببليّتنا ، وجاء في بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام قال : من سرّد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فليُنظر إلى هذا ، لو كان الله يريد به خيراً لطهّره به جسده .

وفي رواية : إن الله يبغض العفريت النفريت الذي لا يرزأ في ولده ولا يصاحب في ماله . انتهى ما ذكره في المرقاة .

وعن جابر - رضي الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ : يودُّ أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم قُرِضت في الدنيا بالمقاريض . رواه الترمذي وقال : هذا حديث غريب ، قال في المرقاة : قال ميرك : وإسناده جيد والحديث حسن .

وعن سليمان بن صرْد - رضي الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ : من قتله بطنه لم يُعَذَّب في قبره رواه أحمد والترمذي ، وقال : هذا حديث غريب . كما في المشكاة «باب عيادة المريض وثواب المرض» ، قال في المرقاة : قال ميرك : رواه النسائي وابن حبان في صحيحه .

قوله ﷺ «من قتله بطنه» إسناده مجازي أى من مات من وجع بطنه ، وهو يحتمل الإسهال والاستسقاء والنفاس ، وقيل : من حفظ بطنه من الحرام والشبه فكأنه قتله بطنه . مرقاة .

قوله : «لم يعذب في قبره» لأنه لشدته كان كفارة لسيئته ، وصح في مسلم أن الشهيد يغفر له كل شيء إلا الدين أى إلا حقوق الآدميين والله أعلم . مرقاة .

وعن عطاء بن أبي رباح قال قال لي ابن عباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ قلت : بلى ، قال : هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت : إني أصرع وإني أتكشَّف فادع الله لي ، قال : إن شئت صبرتي ولك الجنة ، وإن شئت دَعَوْتُ الله أن يعافيك ، فقالت : أصبر ، فقالت : إني أتكشَّف فادع الله ألا أتكشَّف ، فدعا لها . صحيح البخاري «كتاب المرضى» (باب فضل من يُصرع من الريح) .

قوله : «إني أصرع» بصيغة المجهول قال الابري : الصرع علة

تمتع الأعضاء الرئيسة عن انفعالها منعا غير تام ، وسببه ريح غليظ يحتبس في منافذ الدماغ أو بخار ردىء يرتفع إليه من بعض الأعضاء ، وقد يتبعه تشنج في الأعضاء فلا يبقى معه الشخص منتصباً بل يسقط ، وقد يكون الصرع من الجن ولا يقع إلا من النفوس الخبيثة منهم ، وأنكر ذلك كثير من الأطباء . ذكره صاحب المرقاة .

قوله : «وإني أتكشّف» من التكشف ، قال العسقلاني : وبالنون الساكنة مخففاً من الانكشاف ، والمراد : أنها خشيت أن تظهر عورتها وهي لا تشعر . مرقاة .

قوله : «إن شئت صبرت ولك الجنة» قال في المرقاة : فيه إيحاء إلى جواز ترك الدواء بالصبر على البلاء والرضا بالقضاء ، بل ظاهره أن إدامة الصبر مع المرض أفضل من العافية لكن بالنسبة إلى بعض الأفراد ممن لا يعطله المرض عما هو بصدده عن نفع المسلمين وأن ترك التداوي أفضل وإن كان يسر التداوي لخبر أبي داود وغيره «قالوا : أنتداوي ؟ فقال تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء غير الهرم» وأنه لا ينافي التوكل إذ فيه مباشرة الأسباب مع شهود خالقها ، ولأنه ﷺ فعله وهو سيد المتوكلين ، ومع ذلك ترك التداوي توكلًا كما فعله أبو بكر رضي الله عنه فضيلة . انتهى ما ذكره في المرقاة .

وعن يحيى بن سعيد قال : إن رجلاً جاءه الموت في زمن رسول الله ﷺ فقال رجل : هنيئاً له مات ولم يبتل بمرض ، فقال رسول الله ﷺ : ويحك ما يدريك لو أن الله ابتلاه بمرض فكفر عنه من سيئاته . رواه مالك مرسلًا كما في المشكاة «كتاب الجنائز» .

قوله «مايدريك» أى أي شيء يعلمك أن فقد المرض مكرمة . مرقاة .
وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : إذا
كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها من العمل ابتلاه الله بالحزن
ليكفرها عنه . رواه أحمد كما في المشكاة «باب عيادة المريض وثواب المرض»
قال في المرقاة : قال ميرك عن المنذري : ورواه الطبراني في الكبير والأوسط وله
شواهد كثيرة . انتهى .

قوله «ليكفرها عنه» أى عن العبد بسبب الحزن ، وقد روى أن الله
تعالى يحب كل قلب حزين . رواه الطبراني والحاكم . مرقاة .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال ذكرت الحمى عند رسول الله
ﷺ فسبها رجل ، فقال النبي ﷺ : لا تسبها فإنها تنفى الذنوب كما
تنفى النار خبث الحديد ، رواه ابن ماجه كما في المشكاة «باب عيادة المريض» .
وعنه - رضي الله عنه - قال : إن رسول الله ﷺ عاد مريضاً فقال :
أبشر فإن الله تعالى يقول : هي نارى أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا
لتكون حظه من النار يوم القيامة^(١) .

قوله «هي نارى» قال الطيبى : في إضافة النار إشارة إلى أنها لطف
ورحمة ، ولذلك صرح بقوله عبدي ووصفه بالمؤمن . مرقاة .

قوله «حظه من النار يوم القيامة» قال في المرقاة : ويحتمل أنه نصيبه
من الحتم المقضى عليه في قوله تعالى ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ قال : الحمى في
الدنيا حظ المؤمن من الورود في الآخرة .

(١) رواه أحمد وابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان . كما في المشكاة . وقال في المرقاة : رواه هناد بن
السري وابن أبي الدنيا وابن جرير في تفسيره وابن عدي والحاكم وصححه ذكره السيوطي . مرقاة .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ : من مات مريضاً مات شهيداً أو وقى فتنة القبر وغدى وريح عليه برزقه من الجنة رواه ابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان كما في المشكاة «كتاب الجنائز» .

قوله «وَعُدَى وَرِيح عَلَيْهِ بَرزَقِهِ» قال في المرقاة : نائب الفاعل أى جيء له برزقه حال كونه نازلاً عليه من الجنة ، إشارة إلى قوله تعالى : ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وقوله عزوجل : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فإن الغدوة والبكرة أول النهار ، والروح والعشى آخره ، المراد بهما الدوام كما قال الله تعالى : ﴿أَكَلْهَا دَائِمًا﴾ ويمكن أن يكون للوقتين المخصوصين رزق خاص لهم .

ثم المراد بالرزق هنا حقيقته لعدم استحالته ، وقد جاء في الأحاديث أن من المؤمنين من روجه في خيام أو قناديل وأجواف طيور خضر ونحوها خارجها أو تحت العرش ، ومنهم من روجه على شكل طائر تعلق في شجرها وتأكل من ثمرها كيف شاءت . انتهى .

وعن العرياض بن سارية - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : يختصم الشهداء والمتوفون على فرشهم إلى ربنا عزوجل في الذين يتوفون من الطاعون ، فيقول الشهداء : إخواننا قتلوا كما قتلنا ، ويقول المتوفون : إخواننا ماتوا على فرشهم كما متنا ، فيقول ربنا : انظروا إلى جراحهم فإن أشبهت جراحهم جراح المقتولين فإنهم منهم ومعهم ، فإذا جراحهم قد أشبهت جراحهم رواه أحمد والنسائي كما في المشكاة «كتاب الجنائز» .

قال في المرقاة : قال ميرك : وله شواهد من حديث عقبة عن النبي ﷺ قال : يأتي الشهداء والمتوفون بالطاعون ، فيقول أصحاب الطاعون :

نحن شهداء ، فيقال : انظروا فإن كانت جراحهم كجراح الشهداء تسيل دماً
كريح المسك فهم شهداء ، فيجدونهم كذلك . رواد الطبراني في الكبير بإسناد
لا بأس به . انتهى .

وعن جابر - رضي الله عنه - الفار من الطاعون كالفار من الزحف ،
والصابر فيه له أجر شهيد . رواد أحمد . نفس المرجع المذكور . قال في المرقاة :
ورواد البزار والطبراني نقله ميرك عن المنذري .

عن ابن عباس رضي الله عنه رفعه : يؤتى بالشهيد يوم القيامة فينصب
للحساب ، ثم يؤتى بالمتصدق فينصب للحساب ، ثم يؤتى بأهل البلاء فلا
ينصب لهم ميزان ولا ينصب لهم ديوان فيصب عليهم الأجر صابراً حتى أن أهل
العافية ليتمنون في الموقف أن أجسادهم قرضت بالمقاريض من حسن ثواب الله
لهم . كما في جمع الفوائد «كتاب الجنائز» رقم : ٢٣٣٥ .

عن عائشة رضي الله عنها : سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون فقال
إن هذا مما يبعثه الله على من كان قبلكم فجعله الله رحمة للمؤمنين ، مامن
عبد يكون في بلد يكون فيه فيمكث لا يخرج صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا
ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد . للبخاري . نفس المرجع المذكور .
بؤب أبو بكر بن أبي شيبة - وهو شيخ الشيخين البخاري ومسلم - في
مصنفه «أبواب الجنائز» وأورد الأحاديث منها :

حدثنا وكيع عن إياس بن أبي تيممة عن عطاء عن أبي هريرة - رضي الله
عنه - قال : مامن وجع يصيبني أحب إلي من الحمى أنها تدخل في كل
مفصل من ابن آدم ، وأن الله ليعطى كل مفصل قسطاً من الأجر .
حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن سالم قال : رأى أبو الدرداء يوماً رجلاً

فتعجب من جلده ، فقال أبو الدرداء : هل حُمِمتَ قطّ ؟ هل صُدِغتَ قطّ ؟
فقال الرجل : لا ، فقال أبو الدرداء : بُوسٌ لهذا يموت بخطيئاته .

حدثنا حفص بن غياث عن ليث عن مجاهد قال : يكتب من المريض كل شيء حتى أئنيه في مرضه .

حدثنا غندر عن شعبة عن بعض أصحابه عن الحكم عن ربيع بن عميلة عن عمار قال : كان عنده أعرابي فذكروا الوجع ، فقال عمار : ما اشتكيتَ قطّ ؟ فقال : لا ، فقال عمار : ما أنت منا أو لست منا ، مامن عبد يتلى إلا حُطَّ عنه خطاياهم كما تُحطُّ الشجرة ورقها ، وإن الكافر يتلى فمثله كمثل البعير عُقل فلم يدر لم عُقل ، فأطلق فلم يدر لم أطلق .

وعن جابر - رضي الله عنه - قال قلنا : يارسول الله كيف أصبحت ؟ قال : بخير من رجل لم يصبح صائماً ولم يعد سقيماً . انتهى ما ذكره ابن أبي شيبة في مصنفه بحذف .

قلنا : مع هذا التكفير للذنوب والخطايا ومع هذا الفضل العظيم فليس من السنة أن يسأل العبدُ اللهَ البلاء والأمراض والنوائب ، بل عليه أن يسأله العافية ، فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم : «لاتتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، وإذا لقيتموه فاثبتوا» .

وعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال : يارسول الله ! أي الدعاء أفضل ؟ قال : سل ربك العافية والمعافة في الدنيا والآخرة ، ثم أتاه في اليوم الثاني ، فقال أي الدعاء أفضل ؟ فقال له : مثل ذلك ، ثم أتاه اليوم الثالث ، فقال له مثل ذلك ، قال : فإذا أعطيت العافية في الدنيا وأعطيتها في الآخرة فقد أفلحت رواه الترمذي كما في جمع الفوائد رقم الحديث : ٩٤٦١ طبع المدينة المنورة .

وعنه - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ عاد رجلا من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ ، فقال صلى الله عليه وسلم له : هل كنت تدعو الله بشيء أو تسأله إياد ؟ قال : نعم كنت أقول : اللهم ماكنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا ، فقال له : سبحان الله ! لا تطيقه ولا تستطيعه ، أفلا قلت : اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، فدعا الله به فشفاه الله . لمسلم والترمذي كما في جمع الفوائد رقم الحديث : ٩٤٦٢ طبع المدينة المنورة .

(أبوبكر) قام على المنبر ثم بكى فقال : قام رسول الله ﷺ عام أول على المنبر ثم بكى فقال : سلوا الله العفو والعافية ، فإن أحداً لم يعط بعد اليقين خيراً من العافية . للترمذي كما في جمع الفوائد رقم الحديث ٩٤٦٦ . (طارق بن أشيم) كان الرجل إذا أسلم علمه النبي ﷺ الصلاة ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات : اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني . لمسلم . نفس المرجع رقم الحديث : ٩٤٧٣ .

(عائشة) رفعته : اللهم عافني في جسدي ، وعافني في سمعي وعافني في بصرى ، واجعله الوارث مني ، لا إله إلا الله الخليم الكريم ، سبحان رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين . للترمذي كما في جمع الفوائد رقم الحديث ٩٤٧٤ .

وعن ابن عمرو بن العاص رفعه : اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك ، وفجاءة نعمتك وجميع سخطك . لمسلم وأبي داود ، جمع الفوائد رقم الحديث : ٩٤٠٤ .

نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة»

الباب الثاني
الصبر على الأمراض والنوائب

الصبر على الأمراض والنوائب

قال الله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَتَى نَصَرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ البقرة : ٢١٤ .
قال الحافظ ابن كثير في تفسيره :

يقول تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ﴾ قبل أن تبتلوا وتختبروا وتمتحنوا كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم ولهذا قال : ﴿ولمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ وهى الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنوائب .

قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهم رضي الله عنهم ﴿البأساء﴾ الفقر ﴿الضراء﴾ السقم ﴿وزلزلوا﴾ خوفوا من الأعداء زلزلاً شديداً وامتحنوا امتحاناً عظيماً . كما جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت قال : قلنا يارسول الله ! ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا ؟ فقال : إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع الميشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه ، ثم قال : والله ليتمّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون .
وقال تعالى : ﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ .
وقال تعالى : ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ كما قال : ﴿فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً﴾ .

وفي حديث أبي رزين «عجب ربك من قنوط عباده وقرب غيظه فينظر إليهم قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجهم قريب» الحديث . انتهى ما ذكره الحافظ ابن كثير ٢٥٢/١ بحذف .

وذكر الحافظ ابن كثير ٥٢٦/٤ عن أبي هريرة رضي الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : نزل المعونة من السماء على قدر المتونة ، ونزل الصبر على قدر المصيبة . ومما يروى عن الشافعي أنه قال :

صبراً جميلاً ما أقرب الفرجا
من راقب الله في الأمور نجا
من صدق الله لم ينله أذى
ومن رجاه يكون حيث رجا
وقال ابن دريد أنشدني أبو حاتم السجستاني :

إذا اشتملت على اليأس القلوب
وضاق لما به الصدر الرحيب
وأوطأت المكاره واطمأنت
وأرست في أماكنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجهها
ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوث
يمن به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات إذا تناهت
فموصول بها فرج قريب
وقال آخر :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى
ذرعاً وعند الله منها المخرج
كملت فلما استحكمت حلقاتها
فرجت وكان يظنُّها لا تفرج

انتهى ما ذكره الحافظ ابن كثير .

وقال الغزالي رحمه الله : فإن قلت ما حقيقة الصبر ؟ فاعلم : أن لفظة الصبر من طريق اللغة : الحبس ، قال الله تعالى «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم» الآية ، أي احبس نفسك معهم . وإنما يوصف الله تعالى بالصبر على معنى حبسه العذاب عن المجرمين فلا يعاجلهم به ، ثم المعنى الذي هو من

مَسَاعَى الْقَلْبِ سَمِي صَبْرًا لِأَنَّهُ حَبَسَ النَّفْسَ عَنِ الْجَزَعِ وَالْجَزَعُ فِيمَا قَالَه الْعُلَمَاءُ : ذَكَرَ اضْطِرَابَكَ فِي الشَّدَةِ ، وَقِيلَ : بَلْ أَرَادَ الْخُرُوجَ عَنِ الشَّدَةِ بِالْحَكْمِ وَالصَّبْرَ تَرَكَهُ وَحَصَّنَ الصَّبْرَ ذَكَرَ مَقْدَارَ الشَّدَةِ وَوَقْتَهَا وَأَنَّهَا لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ ، وَلَا تَتَقَدَّمُ وَلَا تَتَأَخَّرُ وَلَا فَائِدَةٌ فِي الْجَزَعِ بَلْ فِيهِ الضَّرَرُ وَالْخَطَرُ ، وَحَصَّنَ هَذَا الْحَصْنَ ذَكَرَهُ حَسَنَ عَوْضِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَكَرِيمِ الذَّخْرِ فِي ذَلِكَ لَدَيْهِ فَهَذِهِ هَذِهِ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

وَقَالَ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَنَاجِ الْعَابِدِينَ فِي بَابِ الشَّدَائِدِ وَالْمَصَائِبِ : وَإِنَّمَا كِفَايَتُهُمَا بِالصَّبْرِ ، فَعَلَيْكَ بِالصَّبْرِ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِأَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا الْوَصُولُ إِلَى الْعِبَادَةِ وَحَصُولُ الْمَقْصُودِ مِنْهَا ، فَإِنَّ مَبْنَى أَمْرِ الْعِبَادَةِ كُلِّهَا عَلَى الصَّبْرِ وَاحْتِمَالِ الْمَشَقَّاتِ فَمَنْ لَمْ يَكُنْ صَبُورًا لَمْ يَصِلْ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا بِالْحَقِيقَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ قَصَدَ عِبَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَتَجَرَّدَ لَهَا مُحَقَّقًا اسْتَقْبَلَتْهُ شَدَائِدٌ وَمَحَنٌ وَمَصَائِبٌ مِنْ وَجْهِهِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ لَا عِبَادَةَ إِلَّا وَفِي نَفْسِهَا مَشَقَّةٌ وَلِذَلِكَ كَانَ كُلُّ هَذَا التَّرغِيبِ فِيهِ وَوَعْدِ الثَّوَابِ عَلَيْهِ إِذْ لَا يَتَأْتَى فِعْلَ الْعِبَادَةِ إِلَّا بِقَمْعِ الْهَوَى وَقَهْرِ النَّفْسِ إِذْ هِيَ زَاجِرَةٌ عَنِ الْخَيْرِ ، وَمُخَالَفَةٌ الْهَوَى وَقَهْرِ النَّفْسِ مِنْ أَشَدِّ الْأُمُورِ عَلَى الْإِنْسَانِ . وَثَانِيهَا : إِنْ الْعَبْدُ إِذَا فَعَلَ الْخَيْرَ مَعَ الْمَشَقَّةِ لَزِمَهُ الْإِحْتِيَاطُ حَتَّى لَا يَفْسُدَ عَلَيْهِ . وَثَالِثُهَا : إِنْ الدَّارُ دَارُ مَحْنَةٍ فَمَنْ كَانَ فِيهَا فَلَا يَدُّ لَهُ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ بِشَدَائِدِهَا وَمَصَائِبِهَا ، وَذَلِكَ أَقْسَامٌ مِنْهَا : الْمَصِيبَةُ فِي الْأَهْلِ وَالْقَرَابَاتِ وَالْإِخْوَانِ وَالْأَصْحَابِ بِالْمَوْتِ وَالْفَقْدِ وَالْفِرَاقِ وَفِي النَّفْسِ بِأَنْوَاعِ الْأَمْرَاضِ وَالْأَوْجَاعِ وَفِي الْعَرَضِ بِقِتَالِ النَّاسِ إِيَاحَ وَالطَّمَعِ فِيهِ وَالْإِزْدِرَاءَ بِهِ وَالغِيْبَةَ وَالْكَذْبَ عَلَيْهِ ، وَفِي الْمَالِ بِالذَّهَابِ وَالزُّوَالِ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَصَائِبِ لَذَعَةٌ وَحَرْقَةٌ مِنْ

نوع غير نوع الآخر فيحتاج إلى الصبر عليها كلها وإلا فيمنعه الجزع والتلهف من التفرغ للعبادة .

ورابعها : أن طالب الآخرة أشد ابتلاء وأكثر محنة أبداً ، ومن كان إلى الله أقرب فالمصائب له في الدنيا أكثر والبلاء عليه أشد ، أما تسمع قوله صلى الله عليه وسلم : أشد الناس بلاء الأنبياء ثم العلماء ثم الأمثل فالأمثل . فإذا من قصد الخير وتجرد لطريق الآخرة استقبلته هذه المحن ، فإن لم يصبر عليها ولا يكون بحيث لا يلتفت إليها انقطع عن الطريق واشتغل عن العبادة ، فلا يصل إلى شيء من ذلك .

ولقد أعلمنا الله سبحانه وتعالى فقال : ﴿تلبون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾ ثم قال : ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ فكأنه يقول : وطنوا أنفسكم على أنه لابد لكم من أنواع البلايا فإن تصبروا فأنتم الرجال وعزائمكم عزائم الرجال ، فإذا من عزم على عبادة الله سبحانه يجب أولاً أن يعزم على الصبر الطويل ويوطن نفسه على احتمال المشاق العظيمة المتوالية إلى الموت ، وإلا فقد قصد الأمر بغير آتته وأتاه من غير وجهه .

ولقد ذكر عن الفضيل رحمه الله أنه قال : من عزم على قطع طريق الآخرة فليجعل في نفسه أربعة ألوان من الموت الأبيض والأحمر والأسود والأخضر ، فالموت الأبيض : الجوع ، والأسود : ذم الناس ، والأحمر : مخالفة الشيطان ، والأخضر الوقائع بعضها على بعض .

والثاني من الأمرين : مافي الصبر من خير الدنيا والآخرة فمن ذلك النجاة والنجاح ، قال تعالى : ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث

لايحتسب ﴿ معناه : من يتق الله تعالى بالصبر يجعل له مخرجاً من الشدائد .
ومنها : الظفر بالأعداء قال الله تعالى : ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ .
ومنها : الظفر بالمراد قال الله تعالى : ﴿ومتت كلمة ربك الحسنی علی
بنی إسرائيل بما صبروا﴾ .

وقيل : كتب يوسف في جواب يعقوب عليهما السلام : أن آباءك صبروا
فظفروا ، فاصبر كما صبروا ، تظفر كما ظفروا ، وفي هذا المعنى قيل :
لا تياسنَّ وإن طالت مطالبة :: إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذی الصبر أن يحظى بحاجته :: وسد من القرع للأبواب أن يلجا
ومنها : التقدم على الناس والإمامة قال تعالى : ﴿وجعلناهم أئمة يهدون
بأمرنا لما صبروا﴾ .

ومنها : الثناء من الله سبحانه وتعالى قال سبحانه : ﴿إنا وجدناه صابراً
نعم العبد إنه أواب﴾ .

ومنها : البشارة والصلاة والرحمة قال الله تعالى : ﴿وبشر الصابرين - إلى
قوله تعالى - أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ الآية .

ومنها : المحبة من الله تعالى قال الله تعالى : ﴿والله يحب الصابرين﴾ .
ومنها : الدرجات العلا في الجنة قال الله تعالى : ﴿أولئك يجزون الغرفة
بما صبروا﴾ .

ومنها : الكرامة العظيمة قال تعالى : ﴿سلام عليكم بما صبرتم﴾
ومنها : ثواب بلا غاية ولا نهاية خارجاً عن أوهام الخلق وأعدادهم
وتحصيلهم قال تعالى : ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾

سبحان الله : ما حد ماأكرمه الله تعالى به عبده ، كل هذه الكرامات
في الدنيا والآخرة يعطيها الله عبده على صبره ، فبان لك أن خير الدنيا والآخرة
في الصبر .

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال : جميع خير المؤمن في صبر ساعة واحدة .
ولقد أحسن القائل :

الصبر مفتاح مايرجى :: وكل خير به يكون
فاصبر وإن طال الليالي

ولقائل آخر :

صبرت وكان الصبر منى سجية
وحسبك أن الله أثنى على الصبر
سأصبر حتى يحكم الله بيننا
فإما إلى يسر وإما إلى عسر

فعليك باغتنام هذه الخصلة الشريفة المحمودة وبذل المجهود فيها تكن من
الفائزين والله تعالى ولي التوفيق . انتهى مقاله الغزالي .

واعلم أن للصبر درجات والدرجة التي أثنى عليه رسول الله ﷺ هو الصبر عند الصدمة الأولى ، وإنه لكبير إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون . وهو المطلوب المبشر عليه بالصلاة والرحمة على حد قول الله جلّت عظّمته : ﴿وبشّر الصابرين - إلى قوله تعالى - أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ والله أعلم بالصواب .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر ، فقال : اتقى الله واصبري ، قالت : إليك عني ، فإنك لم تصب بمصيبتى ولم تعرفه ، فقيل لها إنه النبي ﷺ ، فأتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوايين ، فقالت : لم أعرفك . فقال : إنما الصبر عند الصدمة الأولى . رواه البخاري في صحيحه «باب زيارة القبور» .

قوله «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» وفي رواية «عند أول صدمة» ، والمعنى إذا وقع الثبات أول شيء يهجم على القلب من مقتضيات الجزع فذلك هو الصبر الكامل الذي يترتب عليه الأجر ، وأصل الصدم : ضرب الشيء الصلب بمثله فاستعير للمصيبة الواردة على القلب ، قال الخطابي : المعنى أن الصبر الذي يحمد عليه صاحبه ما كان عند مفاجأة المصيبة ، بخلاف ما بعد ذلك فإنه على الأيام يسلو .

وحكى الخطابي عن غيره : أن المرء لا يؤجر على المصيبة لأنها ليست من صنعه ، وإنما يؤجر على حسن تثبته وجميل صبره . وقال ابن بطال : أراد أن لا يجتمع عليها مصيبة الهلاك وفقد الأجر . وقال الطيبي : صدر هذا الجواب منه صلى الله عليه وسلم عن قولها لم أعرفك على أسلوب الحكيم كأنه قال لها : دعى الاعتذار فإني لا أغضب لغير الله وانظري لنفسك .

وقال الرزين بن المنير : فائدة جواب المرأة بذلك أنها لما جاءت طائعة لما أمرها به من التقوى والصبر معتمدة عن قولها الصادر عن الحزن بين لها أن

حق هذا الصبر أن يكون في أول الحال ، فهو الذي يترتب عليه الثواب .
ويؤيده أن في رواية أبي هريرة المذكورة «فقال أنا أصبر ، أنا أصبر» .
وفي مرسل يحيى بن أبي كثير : «فقال : اذهبى إليك ، فإن الصبر عند
الصدمة الأولى» . انتهى مقاله الحافظ في الفتح ٣ / ١٥٠ .

قال العيني في عمدة القارى ٨ / ٩٦ قال الطبري : إن قال القائل إن
أحوال الناس في الصبر متفاوتة فمنهم : من يظهر حزنه على المصيبة في وجهه
بالتغيير له ، وفي عينيه بانحدار الدموع ولا ينطق بشيء من القول ، ومنهم من
يجمع ذلك كله ويريد عليه إظهاره في مطعمه وملبسه ، ومنهم من يكون حاله
في المصيبة وقبلها سواء فأيهم المستحق لاسم الصبر ؟

قد اختلف الناس في ذلك فقال بعضهم : المستحق لاسم الصبر هو الذي
يكون في حاله مثلها قبلها ولا يظهر عليه حزن في جارحة ولا لسان كما زعمت
الصوفية أن الولي لا تتم له الولاية إلا إذا تم له الرضاء بالقدر ولا يحزن على شيء ،
والناس في هذا الحال مختلفون فمنهم من في قلبه الجلد وقلة المبالاة بالمصائب ،
ومنهم من هو بخلاف ذلك ، فالذي يكون طبعه الجزع ويملك نفسه ويستشعر
الصبر أعظم أجراً من الذي يتجلد طباعه .

قال الطبري كما روى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه نعى أخوه عتبة قال
لقد كان من أعز الناس عليّ وما يسرني أنه بين أظهركم اليوم حياً ، قالوا :
وكيف هو من أعز الناس عليك ؟ قال : إني لأؤجر فيه أحب إلي من أن
يؤجر فيّ .

وقال ثابت : أن الصلت بن أشيم مات أخوه فجاء رجل وهو يطعم
فقال : يا أبا الصهباء ! إن أخاك مات ، قال : هلم فكل قد نعى إلينا

فكل قال والله ماسبقني إليك أحد ممن نعا ، قال : يقول الله عزوجل : ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾.

وقال الشعبي : كان شريح رضي الله عنه يدفن جنازته ليلاً فيغتم ذلك فيأتيه الرجل حين يصبح فيسأله عن المريض فيقول : هذا لله الشكر وأرجو أن يكون مستريحاً .

وكان ابن سيرين يكون عند المصيبة كما هو قبلها يتحدث ويضحك إلا يوم ماتت حفصة فإنه جعل يكشر وأنت تعرف في وجهه .

وسئل ربيعة مامنتى الصبر ؟ قال : أن تكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه ، وأما جزع القلب وحزن النفس ودمع العين فإن ذلك لا يخرج العبد من معاني الصابرين إذا لم يتجاوزذ إلى ما لايجوز له فعل لأن نفوس بنى آدم مجبولة على الجزع من المصائب ، وقد مدح الله تعالى الصابرين ووعدهم جزيل الثواب عليه ، وتغيير الأجساد عن هيئاتها ونقلها عن طبعها الذي جبلت عليه لايقدر عليه إلا الذي أنشأها .

وروى المقبري عن أبي هريرة مرفوعاً قال قال الله تعالى : إذا ابتليت عبدي المؤمن فلم يشكنى إلى عواده انشطه من عقاله وبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه ويستأنف العمل . انتهى مقاله العيني في عمدة القاري .

قال الراقم : إن الله بكل شيء عليم ، يعلم مصالح كل شيء ومفاسده ، وإنه بعباده خبير بصير ، يعلم خفايا حالهم ومايؤل إليه أمرهم ويختار لعباده مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك كله فيغنى من يستحق الغنى ويفقر من يستحق الفقر ويسقم من يستحق السقم وهكذا الصحة ، كما روى البغوى بسنده عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى قال يقول الله عزوجل وفيه :

..... إن من عبادي المؤمنين لمن يسألني الباب من العبادة فأكفه عنه لا يدخله عجب فيفسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو افقرته لافسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لافسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمته لافسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححته لافسده ذلك إنني أدبر أمر عبادي بعلمي في قلوبهم إنني عليم خبير .

من التفسير المظهري ٨ / ٣٢٤ / ٣٢٥ .

وأورد الحافظ ابن كثير جزء من هذا الحديث أيضا راجع التفسير لابن كثير ٤ / ١١٦ تحت قوله تعالى ﴿ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير﴾ . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه قال : مرَّ عمر بن الخطاب برجل مبتلى أجذم ، أعمى ، أصم ، وأبكم ، فقال لمن معه : هل ترون في هذا من نعم الله شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال : بلى ! ألا ترون يبول فلا يعتصر - لا يحبس - ولا يلتوي يخرج منه بوله سهلاً ، فهذه نعمة من الله . كما في الكنز ٢ / ١٥٤ .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن إبراهيم قال : سمع عمر رضي الله عنه رجلاً يقول : اللهم إنني أستنفق نفسي ومالي في سبيلك ، فقال عمر : أو لا يسكت أحدكم فإن ابتلى صبر وإن عوفي شكر . كما في الكنز ٢ / ١٥٤ .

إذا المرء كانت له فكرة

ففي كل شيء له عبرة

قال المؤلف : بينما نحن في الحرم النبوي الشريف ذات يوم إذ طلع علينا رجل نحيف مقطوع اليدين إلى الإبطين ، متزين الوجه باللحية حسب شريعتنا البيضاء ، يتميل إلى الجانبين عند مشيه ، وكان رجل يقوده واهضاً يده على عنقه لكي لا يتميل عند المشي ويخر ، جلس إلى جنبي الأيمن وأنا أنظر إليه وأفكر حتى أقيمت صلاة العشاء ، فلما رجعت إلى بيتي ودخلت الفراش أتقلب على فراشي حتى لم أكتحل بالنوم تلك الليلة وأنا متفكر في حالته هذه وأقول :

هل هو يقدر أن يأكل شيئاً أو يشرب بنفسه ؟

هل له أن يلبس الثياب ويخلعها حينما يريد ؟

هل له أن يزمل جسده باللحاف في ليالي الشتاء بنفسه والإنسان يحتاج إليه في الليل مرات كثيرة فمن يترك فراشه الناعم ويقوم ليغطي هذا العبد المحتاج ؟

هل يقدر أن يطهر جسده بالماء بغير معين ؟

هل له أن يحك داخل الأذن والأنف بالأصبع أو يدعو معيناً له

أو خادماً ؟

هل له أن يحك أي عضو من جسده أو يرغم جسده بالأرض أو

بالجدار ليقضى حاجته ؟

وكيف يغسل وجهه هذا العبد ؟

وكيف يمسح النوم عن وجهه وهو مقطوع اليدين إلى الإبطين ؟

هل له من زوجة يلعب بها وتلعب به ؟

أنى له هذا ؟ إلا ما شاء الله ولكن في الجنة له كل شيء إذا صبر

واحتسب على حالته هذه إن شاء الله تعالى .

وهل هو يقدر أن يفتح باب بيته المقفل أو ينتظر غيره ؟

وكيف يجده شاكراً أو كفوراً هذا العبد الضعيف ؟

وهل ؟ وهل ؟ وكيف ؟ وكيف ؟ لا تعد ولا تحصى كالا لا

يقدر على أي شيء يستعمل فيه الأيدي ليقضي حاجته بنفسه إلا بتعاون غيره .

وقلت في نفسي : أبحث عن هذا العبد في الحرم النبوي فإذا لقيته أسأله عن

حالته هذه وأسأله كيف يجد نفسه بربه سبحانه ؟

فلما كان من اليوم الثاني أتيت الحرم النبوي أبتغي هذا الرجل المذكور ،

فدخلت في دورة المياه وجلست لأتوضأ فإذا هذا الرجل المذكور وجدته جالساً

إلى جنبي الأيسر ، كاد أن يفك سنبور الماء بأسنانه ، ففتحت له سنبور الماء

بيدي ، فشكر لي ، وبدأ يتمضمض ، فإذا معيناً له ورد بعد قليل ، فغسل

وجهه وخلل لحيته وغسل رجليه ، ثم توضأ بنفسه وذهب به إلى الحرم النبوي

الشريف وأنا أمشي معه وهو ينظر إليّ وأنظر إليه ، فلما دخلنا الحرم وجلسنا

معاً سألته في اثناء الكلام كيف تجددك في هذه الحالة يا عبد الله ؟ وما ظنك

بربك يا عمي ؟ فتبسم ضاحكاً وقال : حسبي الله ونعم الوكيل نعم المولى

ونعم النصير .

وقرأ عليّ قول خالقه :

﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولنا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ .

وقرأ قوله سبحانه : ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ .

وقال : أنا ما أقول إلا كما قال سيدنا يعقوب صلوات الله وسلامه عليه :

﴿إنما أشكوا بشي وحزني إلى الله﴾ .

وقال : أنا راض من ربي أنا راض من ربي وأقول أمامك : رضيت بالله رباً

وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ﷺ وأدعو الله أن لا يخزني يوم القيامة آمين .
إى والله وجدته كأنه جبل الصبر وكان من حفاظ القرآن ، وكان من
المعتمرين الباكستانيين ، راض على خالقه الذي خلقه على هذه الحالة ، ينصح
الناس ويدعو الله أن لا يخزبه يوم القيامة .

ولقد صدق سيد الصابرين الأولين والآخريين محمد رسول الله ﷺ :
فيما روى عنه صهيب رضي الله عنه ، قال قال رسول الله ﷺ : عجباً لأمر
المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء
شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له . رواه مسلم .
وأثنى الله جلّت عظمته على الصابرين من المؤمنين ووعدهم بالجنة والأجر
الكبير قائلاً :

﴿ولكن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليغوس كفور ، ولئن أذقناه
نعماء بعد ضراء مسته ليقولنّ ذهب السيئات عنيّ إنه لفرح فخور
إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك هم مغفرة وأجر كبير﴾
سورة هود عليه السلام الآية : ٨ - ١١ .

وعلى الإنسان أن لا يتهم ربه في قدره وقضائه فإنه ليس بظلام للعبيد
ولا يظلم عباده .

وعن ابن أبي حاتم أن شداد بن أوس كان يقول : أيها الناس !
لاتتهموا الله في قضائه فإنه لا يبغي على مؤمن ، فإذا أنزل بأحدكم شيئاً مما يجب
فليحمد الله وإذا أنزل به شيئاً مما يكره فليصبر وليحتسب فإن الله عنده حسن
الثواب . أورده الحافظ ابن كثير مفسراً لقوله تعالى ﴿والله عنده حسن الثواب﴾
راجع التفسير لابن كثير ١ / ٤٤٣ .

والآن نذكر قصص بعض الصابرين الذين صبروا واحتسبوا على الأمراض
والبلاء والنوائب ف﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾ .

★ ★ ★ ★ ★

::

صبر سيدنا أيوب عليه السلام على المرض الذي أصابه

وفي ذلك ذكرى للذاكرين

اعلم أن قصة سيدنا أيوب عليه السلام من أحسن القصص وأهمها في باب الصبر على ما كان أصابه من البلاء في ماله وجسده وولده حتى أثنى عليه الله جلّت عظمته في كتابه العزيز الذي يتلى إلى يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار ويُوفى الصابرون أجرهم بغير حساب .

قال تعالى : ﴿وَأَيُّوبَ إِذَا نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَبِيدِينَ﴾ الأنبياء : ٨٣ / ٨٤ .

قال وهب بن منبه : كان أيوب عليه الصلاة والسلام رجلاً من الروم ، وهو أيوب بن أحرص بن رازخ بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام ، وكانت أمه من ولد لوط بن هاران ، وكانت امرأته رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب ، وقيل : هي بنت يوسف عليه الصلاة والسلام .

وقال البغوي روى ابن شهاب عن أنس يرفعه : أن أيوب لبث في بلائه ثمانى عشرة سنة ، وقال وهب : لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين لم يزد يوماً ، وقال كعب : كان أيوب في بلائه سبع سنين ، وقيل : كان في البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام .

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله مفسراً لقوله تعالى المذكور .

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحارث شيء كثير وأولاد كثيرة ومنازل مرضية ، فابتلى في ذلك كله ، وذهب عن آخره ، ثم ابتلى في جسده يقال بالجذام في سائر بدنه ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله عز وجل ، حتى عافه الجليس وأفرد في ناحية من البلد ولم يبق أحد من الناس يخنو عليه سوى زوجته كانت تقوم بأمره ، ويقال إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل» .

وفي الحديث الآخر : «يبتلى الرجل على قدر دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه» .

وقد كان نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام غاية في الصبر وبه يضرب المثل في ذلك ، وقال يزيد بن مسرة لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل والمال والولد ولم يبق شيء له أحسن الذكر ثم قال : أحمدك رب الأرباب الذي أحسنت إليّ أعطيتني المال والولد فلم يبق من قلبي شعبة إلا قد دخله ذلك فأخذت ذلك كله مني وفرغت قلبي فليس يحول بيني وبينك شيء لو يعلم عدوى إبليس بالذي صنعت حسدني . قال : فلقى إبليس من ذلك منكراً قال : وقال أيوب عليه السلام إنك أعطيتني المال والولد فلم يبق علي بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته وأنت تعلم ذلك وإنه كان يوطأ لي الفراش فأتركها وأقول لنفسي يانفس ! إنك لم تخلقي لوطء الفراش ماتركت ذلك إلا ابتغاء وجهك . رواه ابن أبي حاتم .

وقال وهب بن منبه مكث في البلاء ثلاث سنين لا يزيد ولا ينقص ، وقال السدي : تساقط لحم أيوب حتى لم يبق إلا العصب والعظام ، فكانت امرأته تقوم عليه وتأتيه بالرماد يكون فيه ، فقالت له امرأته لما طال وجعه يا أيوب ! لو دعوت ربك يفرج عنك ! فقال : قد عشت سبعين سنة صحيحاً فهو قليل لله أن أصبر له سبعين سنة ، فجزعت من ذلك فخرجت فكانت تعمل للناس بالأجر وتأتيه بما تصيبه فتطعمه ، وإن إبليس انطلق إلى رجلين من أهل فلسطين كانا صديقين له وأخوين فأتاهما فقال أخوكا أيوب أصابه من البلاء كذا وكذا فأتياه وزوراه واحملا معكما من خمر أرضكما فإنه إن شرب منه برىء فأتياه فلما نظرا إليه بكيا ، فقال : من أنتم ؟ فقالا : نحن فلان وفلان فرحب بهما ، وقال : مرحباً بمن لا يجفوني عند البلاء ، فقالا : يا أيوب ! لعلك كنت تسر شيئاً وتظهر غيره فلذلك ابتلاك الله ، فرفع رأسه إلى السماء فقال : هو يعلم ، ما أسررت شيئاً أظهرت غيره ولكن ربي ابتلاني لينظر أأصبر أم أجزع ؟ الحديث .

وعن الزهري عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له ، كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال : أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين فقال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف مابه ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب عليه السلام : ما أدري ما تقول غير أن الله عزوجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين

يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق ، قال : وكان يخرج في حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ فلما كان ذات يوم أبطأت عليه فأوحى الله إلى أيوب في مكانه اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . رفع هذا الحديث غريب جداً .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : وألبسه الله حلة من الجنة فتحنى أيوب فجلس في ناحية وجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت : يا عبد الله أين ذهب المتبلى الذي كان ههنا ؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب ؟ فجعلت تكلمه ساعة . فقال : ويحك أنا أيوب . قالت : أتسخر مني يا عبد الله ؟ فقال : ويحك أنا أيوب قد ردَّ الله عليَّ جسدي .

وبه قال ابن عباس وردَّ عليه ماله وولده عياناً ومثلهم معهم . وقال وهب بن منبه أوحى الله إلى أيوب قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك وقرب عن صحابتك قريباً واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك . رواه ابن أبي حاتم .

وقال أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : لما عاق الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب فجعل يأخذ منه بيده ويجعله في ثوبه قال : فقيل له : يا أيوب ! أما تشبع ؟ قال : يارب ! ومن يشبع من رحمتك ؟ . أصله في الصحيحين .

وقال مجاهد قيل له : يا أيوب إن أهلك لك في الجنة فإن شئت أتيناك بهم وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم ، قال : لا ، بل أتركهم في الجنة فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا .

وقال بعد قليل في قوله تعالى : ﴿وذكرى للعابدين﴾ أى وجعلناه في ذلك قدوة لتلا يظن أهل البلاء إنما فعلنا بهم ذلك هوأنهم علينا ، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء وله الحكمة البالغة في ذلك . انتهى ما ذكره الحافظ ابن كثير ٣ / ١٨٩ / ١٩١ بحذف .

★ ★ ★ ★ ★

صبر سيدنا محمد رسول الله ﷺ على شدة الحمى

أخرج ابن ماجه وابن أبي الدنيا والحاكم - واللفظ له وقال صحيح على شرط مسلم وله شواهد كثيرة - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوك - أي محموم - عليه قطيفة فوضع يده فوق القطيفة فقال ما أشد حُمَاكَ يا رسول الله ! قال : إنا كذلك يُشَدُّ علينا البلاء ويضاعف لنا الأجر ، ثم قال : يا رسول الله ! من أشد الناس بلاء ؟ قال : الأنبياء ، قال : ثم من ؟ قال : العلماء ، قال : ثم من ؟ قال : الصالحون ، وكان أحدهم يُبتلى بالقمل حتى يقتله ويبتلى أحدهم بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يلبسها ، ولأحدهم أشد فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء . كما في الترغيب ٥ / ٢٤٣ . وأخرجه البيهقي ، كما في الكنز ٢ / ١٥٤ وأبو نعيم في الحلية ١ / ٣٧٠ . نحو .

وأخرج البيهقي عن أبي عبيدة بن حذيفة رضي الله عنه عن عمته فاطمة رضي الله عنها قالت : أتينا رسول الله ﷺ في نساء نعوذ وقد حُمَّ فأمر بسقاء فعلق على شجرة ثم اضطجع تحته فجعل يقطر على فواقه - أي يقطر ماؤه عليه كما في المجمع - من شدة ما يجد من الحمى فقلت : يا رسول الله لو دعوت الله أن يكشف عنك ، فقال : إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . كما في الكنز ٢ / ١٥٤ . وأخرجه أحمد والطبراني في الكبير بنحوه ، قال الهيثمي ٢ / ٢٩٢ : وإسناده حسن .

وأخرج ابن سعد والحاكم والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ طرقه وجع فجعل يشتكى ويتقلب على فراشه ، فقالت له عائشة :

لو فعل هذا بعضنا وجدت عليه ! فقال : إن المؤمنين ليسدّد عليهم وإنه ليس من مؤمن تصيبه نكبة شوكة ولا وجع إلا كفر الله عنه بها خطيئة ورفع له بها درجة . كما في الكنز ٢ / ١٥٤ ، وأخرجه أحمد نحو ، قال الهيثمي ٢ / ٢٩٢ :
ورجاله ثقات .

صبر أصحاب النبي ﷺ على الأمراض صبر أهل قباء والأنصار على الحمى

أخرج أحمد عن جابر رضي الله عنه قال : استأذنت الحمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من هذه ؟ قالت : أم مِلْدَم - كنية الحمى - فأمر بها إلى أهل قباء ، فلقوا منها ما يعلم الله فأتود فشكّوه ذلك إليه فقال : «ماشئتم إن شئتم دعوت الله فكشفها عنكم وإن شئتم أن تكون لكم طهوراً ، قالوا : أو تفعل ؟ قال : نعم ، قالوا : فدعها . قال في الترغيب ٥ / ٢٦٠ :
رواه أحمد - ورواه رواة الصحيح - وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه - اه .

وعند الطبراني عن سلمان رضي الله عنه قال : استأذنت الحمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : من أنت ؟ فقالت : أنا الحمى أبري اللحم وأمص الدم ، قال : اذهبي إلى أهل قباء فأتهم فجاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أصفرت وجوههم فشكّوا الحمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ماشئتم إن شئتم دعوت الله فدفعها عنكم وإن شئتم تركتموها وأسقطت بقية ذنوبكم ؟ قالوا : بلى ؛ فدعها يارسول الله . قال الهيثمي ٢ / ٣٠٦ : وفيه هشام بن لاجق وثقه النسائي وضعفه أحمد وابن حبان اه ، وأخرجه البيهقي عن سلمان نحو ، كما في البداية ٤٦ / ١٦٠ .

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاءت الحمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ابعثنى إلى أحب قومك إليك - أو أحب أصحابك إليك ، شك قُرّة - فقال : اذهبي إلى الأنصار ، فذهبت إليهم فصرعتهم فجاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله قد أتت الحمى علينا فادع الله لنا بالشفاء ، فدعا لهم فكشفت عنهم ، قال : فاتّبعته امرأة فقالت : يا رسول الله ! أدع الله لي فيني لمن الأنصار فادع الله لي كما دعوت لهم فقال : أيهما أحب إليك أن أدعو لك فيكشف عنك أو تصبرين وتجب لك الجنة ؟ فقالت : لا والله يا رسول الله بل أصبر - ثلاثا - ولا أجعل والله لجنّته خطراً . كما في البداية ٦ / ١٦٠ ، وأخرجه البخاري في الأدب ص ٧٣ عن أبي هريرة بمعناه .

قوله «خطراً» أى عوضاً ومثيلاً . ولا تقال هذه الكلمة إلا في الشيء الذي له قدر ومزية .

﴿صبر امرأة أنصارية على داع الصرع﴾

أخرج البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي ﷺ بمكة فجاءته امرأة من الأنصار فقالت : يا رسول الله ! إن هذا الخبيث - الشيطان الذي تلبس بها - قد غلبني ، فقال لها : إن تصبري على ما أنت عليه تجيئين يوم القيامة ليس عليك ذنوب ولا حساب ، قالت : والذي بعثك بالحق لأصبرن حتى ألقى الله . قالت : إني أخاف الخبيث أن يجردني ، فدعا لها ، فكانت إذا خشيت أن يأتيها تأتي أستار الكعبة فتعلّق بها وتقول له : اخسأ فيذهب عنها .

وعند أحمد عن عطاء رضي الله عنه قال قال لي ابن عباس رضي الله عنهما ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ الحديث . قد ذكرناه في

(باب المسلم يؤجر على المرض الخ) ورواه الشيخان أيضا ثم قال البخاري عن عطاء : أنه رأى أم زُفر رضي الله عنها تلك امرأة طويلة سوداء على ستر الكعبة كما في البداية ٦ / ١٦٠ .

﴿صبر أحد الأصحاب على الحمى﴾

أخرج الطبراني في الصغير والأوسط عن عائشة رضي الله عنها قالت : فقد النبي ﷺ رجلا كان يجالسه فقال : مالي فقدت فلانا ؟ فقالوا : اعتبط - وكانوا يسمون الوغك الاعتباط - فقال : قوموا حتى نعوده ، فلما دخل عليه بكى الغلام فقال له النبي ﷺ : لا تبك فإن جبريل أخبرني أن الحمى حظ أمي من جهنم . وفيه عمر بن راشد ضعّفه أحمد وغيره وثقه العجلي ، كما في المجمع ٢ / ٣٠٦ .

﴿صبر أبي بكر وأبي الدرداء رضي الله عنهما﴾

وأخرج ابن سعد ٣ / ١٤١ وابن أبي شعبة وأحمد في الزهد وأبو نعيم في الحلية ١ / ٣٤ وهناد عن أبي السفر قال : دخل على أبي بكر رضي الله عنه ناس يعودونه في مرضه فقالوا : يا خليفة رسول الله ﷺ ! ألا ندعو لك مطيباً - في الحلية وابن سعد : طيباً - ينظر إليك ؟ قال : قد نظر إليّ ، قالوا : فماذا قال لك ؟ قال : قال : ﴿إني فعّال لما أريد﴾ . كما في الكنز ٢ / ١٥٣ .

وأخرج أبو نعيم في الحلية ١ / ٢١٨ عن معاوية بن قرة أن أبا الدرداء رضي الله عنه اشتكى فدخل عليه أصحابه فقالوا : ماتشتكى يا أبا الدرداء ؟

قال أشتكى ذنوبي ، قالوا : فما تشتهي ؟ قال : أشتهي الجنة ؛
قالوا : أفلا ندعو لك طيباً ؟ قال هو الذي أضجعني . وأخرجه
ابن سعد ٧ / ١١٨ عن معاوية مثله .

﴿صبر عبدالله بن مسعود وتوكله رضي الله عنه﴾

وأخرج ابن عساكر عن أبي ظبية قال : مرض عبدالله رضي الله عنه مرضه
الذي توفي فيه فعاده عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال : ماتشتكى ؟ قال
ذنوبي ، قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي ، قال : ألا أمر لك
بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني ، قال : ألا أمر لك بعطاء ؟ قال :
لا حاجة لي فيه ، قال : يكون لبناتك من بعدك ، قال : أتخشى على
بناتي الفقر ؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، إني
سمعت رسول الله ﷺ يقول : من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم
تصبه فاقة أبداً ، كما في التفسير لابن كثير ٤ / ٢٨٢ .

﴿صبر معاذ وأهله على الطاعون﴾

وأخرج ابن خزيمة وابن عساكر عن عبدالرحمن بن غنم قال : وقع الطاعون
بالشام فقال عمرو بن العاص رضي الله عنه : إن هذا الطاعون رجس - أي
عذاب - ففروا منه في الأودية والشعاب ، فبلغ ذلك شُرحبيل ابن حسنة رضي
الله عنه فغضب وقال : كذب عمرو بن العاص لقد صحبت رسول الله
ﷺ وعمرو أضلُّ من جمل أهله ، إن هذا الطاعون دعوة نبيكم ورحمة
ربكم ووفاة الصالحين قبلكم ، فبلغ ذلك معاذاً رضي الله عنه فقال : اللهم
اجعل نصيب آل معاذ الأوفر ، فماتت ابنتاه وطعن ابنه عبدالرحمن

فقال : الحقُّ من ربِّك فلا تكوننَّ من الممتريين ، فقال - القائل معاذ وهو يجيب ابنه - ستجدني إن شاء الله من الصابرين . وطعن معاذ في ظهر كفه فجعل يقول : هي أحبُّ إليَّ من حُمرة النَّعم ، ورأى رجلاً يبكي عنده فقال : مايكيك ؟ قال : العلم الذي كنت أصيبه منك ، قال : فلا تبك فإن إبراهيم كان في الأرض وليس بها عالم فاتاه الله علماً فإذا أنا مت فاطلب العلم عند أربعة : عبدالله بن مسعود وعبدالله بن سلام وسلمان وأبي الدرداء رضي الله عنهم كما في الكنز ٢ / ٣٢٥ ؛ وأخرجه أحمد عن عبدالرحمن ابن غنم مختصراً والبخاري عنه مطوّلاً ، كما في الهيثمي ٢ / ٣١٢ وقال : أسانيد أحمد حسان صحاح . وأخرجه الحاكم ١ / ٢٧٦ وأبو نعيم في الحلية ١ : ٢٤٠ عن عبدالرحمن مختصراً ولفظ أبي نعيم :

قال : طعن معاذ وأبو عبيدة وشرجيل بن حسنة وأبو مالك الأشعري رضي الله عنهم في يوم واحد فقال معاذ : إنه رحمة ربكم عزوجل ، ودعوة نبيكم ﷺ ، وقبض الصالحين قبلكم ، اللهم آت آل معاذ النصيب الأوفر من هذه الرحمة ، فما أمسى حتى طعن ابنه عبدالرحمن بكفه الذي كان يكنى به وأحب الخلق إليه فرجع من المسجد فوجده مكروباً فقال : يا عبدالرحمن كيف أنت ؟ فاستجاب له فقال : يأبى الحقُّ من ربِّك فلا تكوننَّ من الممتريين فقال معاذ : وأنا إن شاء الله ستجدني من الصابرين ، فأمسكه ليله ثم دفنه من الغد فطعن معاذ فقال حين اشتد به النزع : نزع الموت ، فنزع نزعاً لم يُنزعه أحد ، وكان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال : رب اخنقني خنقتك فوعزتك إنك لتعلم أن قلبي يحبُّك . وأخرجه أحمد عن أبي منيب مختصراً ورجاله ثقات وسنده متصل ، كما قال الهيثمي ٢ / ٣١١ .

﴿صبر أبي عبيدة والمسلمين على الطاعون﴾

وأخرج ابن إسحاق عن شهر بن حوشب عن رابة - رجل من قومه - قال : لما اشتعل الوجد قام أبو عبيدة رضي الله عنه في الناس خطيباً فقال : أيها الناس إن هذا الوجد رحمة بكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم لأبي عبيدة حظه ، فطعن فمات ، واستخلف على الناس معاذ بن جبل رضي الله عنه فقام خطيباً بعده فقال : أيها الناس إن هذا الوجد رحمة بكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وإن معاذاً يسأل الله تعالى أن يقسم لآل معاذ حظهم ، فطعن ابنه عبدالرحمن فمات ، ثم قام فدعا لنفسه فطعن في راحته فلقد رأته ينظر إليها ثم يقلب - في الطبري : يقبل - ظهر كفه ثم يقول : ما أحبُّ أن لي بما فيك شيئاً من الدنيا ، فلما مات استخلف على الناس عمرو بن العاص رضي الله عنه فقام فيهم خطيباً فقال : أيها الناس إن هذا الوجد إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار فتحصنوا منه في الجبال ، فقال أبو وائل الهذلي رضي الله عنه : كذبت والله لقد صحبت رسول الله ﷺ وأنت شر من حماري هذا ! فقال : والله ما أريد عليك ماتقول وايم الله لانقيم عليه - أى لا نبقي في مكاننا - قال : ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا ودفعه الله عنهم ، قال : فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه من رأى عمرو بن العاص فوالله ماكرهه . كذا في البداية ٧ / ٧٨ .

﴿قول معاذ في طاعون عمواس﴾

وأخرج أحمد عن أبي قلابة أن الطاعون وقع بالشام فقال عمرو بن العاص رضي الله عنه : إن هذا الرجز قد وقع فتفرقوا عنه في الشعاب

والأودية ، فبلغ ذلك معاذاً رضي الله عنه فلم يصدقه بالذي قال ، قال فقال : بل هو شهادة ورحمة ، ودعوة نبيكم ﷺ ، اللهم أعط معاذاً وأهله نصيبهم من رحمتك ، قال أبو قلابة : فعرفت الشهادة وعرفت الرحمة ولم أدر مادعوة نبيكم حتى أنبت أن رسول الله ﷺ بينا هو ذات ليلة يصلي إذ قال في دعائه : «فحمي إذاً أو طاعوناً» - ثلاث مرات - ، فلما أصبح قال له إنسان من أهله : يا رسول الله لقد سمعتك الليلة تدعو بدعاء ، قال : وسمعته ؟ قال : نعم ، قال : إني سألت ربي عزوجل أن لا يهلك أمتي بسنة - قحط - فأعطانيها ، وسألت الله أن لا يسلط عليهم عدواً يبيدهم وسألته ، أن لا يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض فأبى عليّ - أو قال : فمُنعت - فقلت : «حمي إذاً أو طاعوناً» - يعني ثلاث مرات ، قال الهيثمي ٣١١/٢ . رواد أحمد . وأبو قلابة لم يدرك معاذ بن جبل - انتهى .

﴿فرح أبي عبيدة بالطاعون﴾

وأخرج ابن عساكر عن عروة بن الزبير رضي الله عنه أن وجع عمّواس كان معافى منه أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ثم أهله فقال : «اللهم نصيبك في آل (أبي) عبيدة ، فخرجت بأبي عبيدة في خنصره بثرة فجعل ينظر إليها فقليل إنها ليست بشيء فقال : إني أرجو أن يبارك الله فيها فإنه إذا بارك الله في القليل كان كثيراً .

وعنده أيضاً عن الحارث بن عميرة الحارثي أن معاذ بن جبل رضي الله عنه أرسله إلى أبي عبيدة بن الجراح يسأله كيف هو - وقد طعن - فأراد أبو عبيدة طعنه خرجت في كفه فتكاثرت شأنها في نفس الحارث ، وفرق منها حين رآها فأقسم أبو عبيدة بالله ما يجب أن له مكانها حُمر النعم . كذا في المنتخب ٧٤/٥ .

﴿صبر أصحاب النبي ﷺ على ذهاب بصرهم﴾

﴿صبر زيد بن أرقم رضي الله عنه على فقد بصره﴾

أخرج البخاري في الأدب ص ٧٨ عن زيد بن أرقم رضي الله عنه يقول :
رمدت عيني فعادني النبي ﷺ ثم قال : يا زيد لو أن عينك لما بها
- أى ذهب - كيف كنت تصنع ؟ قال : كنت أصبر وأحتسب -
أى أطلب الثواب من الله - قال : لو أن عينك لما بها ثم صبرت
واحتسبت كان ثوابك الجنة .

وعند أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : دخلت مع النبي ﷺ نعود
زيد بن أرقم وهو يشتكى عينيه فقال له : يا زيد لو كان بصرك لما به وصبرت
واحتسبت لتلقين الله عزوجل ليس عليك ذنب . قال الهيثمي ٢ / ٣٠٨ :
وفيه الجعفي وفيه كلام كثير وقد وثقه الثوري وشعبة . انتهى .

وعند أبي يعلى وابن عساكر عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن النبي
ﷺ دخل عليه يعود من مرض كان به فقال : ليس عليك من مرضك
هذا بأس ولكن كيف بك إذا عمّرت بعدي فعميت ؟ قال : إذا أصبر
وأحتسب ، قال : إذا تدخل الجنة بغير حساب . فعمى بعد ممت
النبي ﷺ . وأخرجه البيهقي عن زيد بمعناه ، كما في الكنز ٢ / ١٥٧ ،
وأخرجه الطبراني في الكبير عن زيد نحوه وزاد : فعمى بعدما مات النبي
ﷺ ثم ردّ الله عزوجل إليه بصره ثم مات رحمه الله ؛ قال الهيثمي ٢ / ٣٠٩
ونبأته بنت برير بن حماد لم أجد من ذكرها .

﴿صبر بعض الأصحاب على فقد بصره﴾

وأخرج البخاري في الأدب ص ٧٨ عن القاسم بن محمد أن رجلاً من أصحاب محمد - ﴿عليه السلام﴾ ذهب بصره فعاده فقال : كنت أريدهما لأنظر إلى النبي ﴿عليه السلام﴾ فأما إذا قبض النبي ﴿عليه السلام﴾ فوالله ما يسرُّني أن ما بهما بظبي من ظباء تباله .

قوله تباله : بلد باليمن (والظبي : الغزال) وأخرجه ابن سعد ٢ / ٨٥ عن القاسم نحوه .

نقلت هذه القصص كلها من «حياة الصحابة» طبع دار القلم وهو تأليف الشيخ المحدث محمد يوسف الكاندهلوي رحمه الله تعالى .



الباب الثالث
جواز شكوى المريض

جواز شكوى المريض

وقوله أنا شديد الوجد أو موعوك أو وأرأساه ونحو ذلك

الشكوى إلى الله سبحانه والاستغاثة به ليس فيها شيء فقد قال الله تعالى في كتابه حكاية عن أيوب صلى الله عليه وسلم : «وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين» ثم وصفه بأنه صابر ونعم العبد قائلاً : «إننا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب» .

وكذلك شكى يعقوب صلى الله عليه وسلم غمه وحزنه إلى الله سبحانه فقال : «فصبر جميل» وقال : «إنما أشكو بثي وحزني إلى الله» .

قال في التفسير المظهري ٦ / ٢٢٩ : فإن قيل : إن الله سماه - أي أيوب عليه الصلاة والسلام - صابراً وقد أظهر الشكوى والجزع بقوله : «إني مسني الضر» و «مسني الشيطان بنصب وعذاب» .

قيل : ليس هذا شكاية إنما هو دعاء بدليل قوله تعالى : «فاستجبنا له» والجزع إنما هو في الشكوى إلى الخلق ، وأما الشكوى إلى الله فلا يكون جزعاً ولا ترك صبر كما قال يعقوب - صلى الله عليه وسلم - : «إنما أشكو بثي وحزني إلى الله» .

وقال سفيان بن عيينة : من أظهر الشكوى إلى الناس وهو راضٍ بقضاء الله لا يكون ذلك جزعاً . كما روى أن جبريل دخل على النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه فقال : كيف تجددك ؟ قال : أجدني مغموماً ، أجدني مكروباً ، - وسنين هذا الحديث بطوله إن شاء الله - .

قلت : - القائل صاحب التفسير المظهري - كذا في حديث أبي هريرة عند ابن الجوزي بلفظ : قال جبريل : إن الله يقرأك السلام ويقول : كيف تجددك ... الحديث . انتهى بحذف .

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - اختلف الناس في هذا الباب ، والتحقيق أن الألم لا يقدر أحد على دفعه والنفوس مجبولة على وجدان ذلك . وإنما كلف العبد ألا يقع منه حال المصيبة المبالغة في التأود والجزع الزائد ، وأما مجرد التشكى فجائز ، وقد اتفقوا على كراهة شكوى العبد ربه ، وشكواه إنما هي : ذكر المصيبة للناس على سبيل التضرع . كما في شرح السنة للبغوي علق عليه شعيب الأرنؤوط ٤ / ٢٢١ .

وقد روى عن طائس رحمه الله : أنه كرد أنين المريض وقال : إنه شكوى وقرىء قوله هذا على الإمام أحمد في مرض موته فما أن حتى مات رحمه الله . مجموع الفتاوى لابن تيمية كتاب الجنائز ٢٤ / ٢٨٤ .

بؤب البخاري رحمه الله في صحيحه «باب قول المريض إني وجع أو وأرأساد أو اشتد بي الوجع وقول أيوب عليه الصلاة والسلام «مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين» وسرد الأحاديث بعده كما يلي :

عن يحيى بن سعيد قال سمعت قاسم بن محمد - بن أبي بكر الصديق - قال قالت عائشة : وأرأساه فقال رسول الله ﷺ : ذاك لو كان وأنا حي فاستغفر لك وأدعو لك ، فقالت عائشة : وأثكلياه والله إني لأظنك إنك تحب بموتي ، ولو كان ذلك لظلللت آخر يومك معرّساً ببعض أزواجك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بل أنا وأرأساه لقد هممتُ أو أردت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه وأعهد أن يقول القائلون أو يتمنى المتمنون ، ثم قلت : يأبى الله ويدفع المؤمنين أو يدفع الله ويأبى المؤمنون .

قوله «وأرأساه» هو تفجع على الرأس لشدة ما وقع به من ألم الصداع . قوله «وأثكلياه» بفتح المثناة وضمها الموت والهلاك وفقدان الحبيب

أو الولد وليست حقيقة الكلام مرادة بل هو كلام يجرى على ألسنتهم عند التوجع والمصيبة . لمعات .

قوله : «بل أنا وا رأساه» ذكر الشيخ أحمد على السهارنفوري في حاشيته على صحيح البخاري : هي كلمة أضراب والمعنى دعي ذكر ماتجدينه من وجع رأسك واشتغلي بي فإنه أهم من أمرك . قاله الحافظ في الفتح . قال التيمي في التخيير : قالت عائشة وا رأساه شكت من وجع رأسها ، وخافت الموت على نفسها ، وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها تعيش بعده ، فقال : لو كان وأنا حيّ فأستغفر لك الخ ثم قال : بل أنا وا رأساه أى لأبأس عليك مما تخافين إنك لا تموتين في هذه الأيام لكنى أنا الذي أموت فيها ، وفيه أنه من اشتكى عضواً جاز أن يتأوه منه ، وجواز المزاح لأنه علم أن الأجل لايتقدم ولا يتأخر ، وإنما قال ذلك على طريق الملاعبة ، وفيه أن ذكر الوجع ليس بشكاية ، لأنه قد يسكت الإنسان ويكون شاكياً ويذكر وجعه ويكون راضياً فالمعمول على النية لا على الذكر . انتهى ما ذكره الشيخ أحمد على السهارنفوري في حاشيته على صحيح البخاري .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك فمسسته بيدي فقلت : إنك لتوعك وعكاً شديداً قال : أجل كما يوعك رجلان منكم قال : لك أجران ؟ قال : نعم ، ما من مسلم يصيبه أذى مَرَضٌ فما سواه إلا حطَّ الله سيئاته كما تحطُّ الشجرة ورقها .

وعن عامر بن سعد عن أبيه - ابن أبي وقاص - قال : جاءنا رسول الله ﷺ يعودني من وجع اشتدَّ بي زمن حجة الوداع فقلت : بلغ بي ماترى وأنا ذو مال ولا يرثنى إلا ابنة لي أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : لا ، قلت : بالشطر ؟ قال : لا ،

قلت : الثالث ؟ قال : الثالث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عائلة يتكففون الناس ، ولن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ماتجعل في في - أي فم - امرأتك . انتهى ما ذكره البخاري في صحيحه .

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : رجع إلي رسول الله ﷺ ذات يوم من جنازة من البقيع ، فوجدني وأنا أجد صداعاً وأنا أقول : و أ رأ ساه قال : بل أنا ياعائشة ! و أ رأ ساه ، قال : وما ضرَّك لو مُتُّ قبلي فغسلتُك وكفنتُك وصليتُ عليك ودفنتُك ، قلت : لكأني بك ، والله لو فعلت ذلك لرجعت إلى بيتي فعرست فيه ببعض نسائك ، فتبسّم رسول الله ﷺ ثم بُدئ - أي شرع - في وجعه الذي مات فيه . رواه الدارمي كما في المشكاة «باب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم» .

وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن رجلاً من قريش دخل على أبيه على بن الحسين فقال ألا أحدثك عن رسول الله ﷺ ؟ قال : بلى حدّثنا عن أبي القاسم ﷺ ، قال لما مرض رسول الله ﷺ أتاه جبريل ، فقال : يا محمد ! إن الله أرسلني إليك تكريماً لك وتشريفاً لك خاصة لك ، يسألك عمّا هو أعلم به منك يقول : كيف تجددك ؟ قال : أجدني يا جبريل مغموماً وأجدني يا جبريل مكروباً - أي مهموماً - ثم جاء اليوم الثاني فقال له ذلك فردّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم كما ردّ أول يوم ، ثم جاءه اليوم الثالث ، فقال له كما قال أول يوم وردّ عليه كما ردّ عليه ، وجاء معه ملك يقال له إسماعيل - هو صاحب سماء الدنيا - على مائة ألف ملك ، كل ملك على مائة ألف ملك ، فاستأذن عليه فسأله عنه ثم قال جبريل : هذا ملك الموت يستأذن عليك ،

ما استأذن على آدمي قبلك ، ولا يستأذن آدمياً بعدك ، فقال : ائذن له ، فأذن له فسلم عليه ، ثم قال : يا محمد إن الله أرسلني إليك فإن أمرتني أن أقبض روحك قبضتُ ، وإن أمرتني أن أتركه تركته ، فقال : وتفعل ياملك الموت ؟ قال : نعم بذلك أمرتُ وأمرتُ أن أطيعك ، قال : فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبريل عليه السلام ، فقال جبريل : يا محمد ! إن الله قد اشتاق إلى لقاءك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لملك الموت : امض لما أمرت به ، فقبض روحه ، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءت التعزية سمعوا صوتاً من ناحية البيت : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ، إن في الله عزاءً من كل مصيبة ، وخلفاً - أى عوضاً - من كل هالك ، ودركا - أى تداركاً - من كل فائت فبالله فثقوا وإياه فارجوا فإنما المصاب من حُرْمِ الثواب . قال علي : أتدرون من هذا ؟ هو الخضر عليه السلام . رواه البيهقي في دلائل النبوة كما في المشكاة «باب وفاة النبي ﷺ»

الباب الرابع
كراهية تمني الموت لضر أصابه

الفصل الأول

كراهية تمنى الموت لضر أصابه

عن أنس بن مالك قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه - أى لأجل مرض - فإن كان لا بد فاعلاً فليقل : اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي . صحيح البخاري «باب نهي تمنى المريض الموت» ٨٤٧ .

قوله «من ضر أصابه» قال الحافظ في الفتح ١٠ / ١٢٨ : حمله جماعة من السلف على الضر الدنيوي ، فإن وجد الضر الأخرى بأن خشى فتنة في دينه لم يدخل في النهي ، ويمكن أن يؤخذ ذلك من رواية ابن حبان «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به في الدنيا» . على أن «في» في هذا الحديث سببية ، أى بسبب أمر من الدنيا .

وقد فعل ذلك جماعة من الصحابة ، ففي الموطأ عن عمر - رضي الله عنه - أنه قال : اللهم كبرت سني ، وضعفت قوتي ، وانتشرت رعيتي ، فاقبضني إليك غير مضيع ، ولا مفرط» . أخرجه عبدالرزاق من وجه آخر من عمر رضي الله تعالى عنه .

وأخرج أحمد وغيره من طريق عيسى ، ويقال : عابس الغفاري أنه قال : «يا طاعون خذني» ، فقال له عليم الكندي : لم تقول هذا ؟ ألم يقل رسول الله ﷺ : لا يتمنين أحدكم الموت ؟ فقال : إني سمعت يقول : بادروا بالموت ستا : إمرة السفهاء ، كثرة الشرط ، وبيع الحكم ، الحديث .

وأخرج أحمد أيضاً من حديث عوف بن مالك نحوه ، وأنه قيل له : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماعمر المسلم كان خيراً له . الحديث . وفيه الجواب نحوه .

وأصرح منه في ذلك حديث معاذ - رضي الله عنه - الذي أخرجه أبو داود وصححه الحاكم ، في القول في دبر كل صلاة ، وفيه : «إذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون» . انتهى كلام الحافظ .

قال الراقم : وفي رواية له أخرى - أي لأبي داود - قول دحية بن خليفة رضي الله عنه : لما رأى أصحابه الذين رغبوا عن هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصيام في السفر قال : «والله لقد رأيت اليوم أمراً ما كنت أظن أنى أراه ، أن قوماً رغبوا عن هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، يقول ذلك للذين صاموا ثم قال عند ذلك : «اللهم اقبضني إليك» راجع السنن لأبي داود كتاب الصوم «باب مسيرة ما يفطر فيه الصائم» انتهى .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يتمنين أحدكم الموت ، ولا يدع به من قبل أن يأتيه ، إنه إذا مات انقطع أمله وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً . رواه مسلم في صحيحه كما في المشكاة «كتاب الجنائز» .

قال في المرقاة : قال التوريشتي : النهى عن تمنى الموت وإن كان مطلقاً لكن المراد به المقيد لما في حديث أنس : لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه وقوله عليه الصلاة والسلام : وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، فعلى هذا يكره تمنى الموت من ضر أصابه في نفسه وماله لأنه في معنى التبرم من قضاء الله تعالى ، ولا يكره التمنى لخوف فساد في دينه . انتهى .

قوله ﷺ : «وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً» كما في رواية لأحمد عن أبي هريرة قال : كان رجلاً من بلي وهم حي من قضاة أسلموا مع رسول الله ﷺ ، فاستشهد أحدهما ، وآخر الآخر سنة ، قال طلحة بن عبيدالله : فرأيت الجنة ، فرأيت المؤخر منهما أدخل قبل الشهيد ، فتعجبت لذلك ، فأصبحت فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال : أليس قد صام بعده رمضان ، وصلى ستة آلاف ركعة ، أو كذا وكذا ركعة ، صلاة السنة .
وله عن طلحة مرفوعاً «ليس أحد أفضل عند الله من مؤمن يعمر في الإسلام لتسيحه وتكبيره وتهليله» .

وعن أبي بكر أن رجلاً قال : يا رسول الله ! أيُّ الناس خير ؟ قال : من طال عمره ، وحسن عمله ، قال : فأبي الناس شر ؟ قال : من طال عمره ، وساء عمله . صححه الترمذي . .

قال الراقم : هذه الروايات الثلاث المذكورة أعلاه مقتنصة من رسالة «أحكام تمنى الموت» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله .
وعن قيس بن أبي حازم قال : دخلنا على خَبَّاب نعوده ، وقد اكتوى سبع كياتٍ ، فقال : إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا وإنما أصبنا ما لانجد له موضعاً إلا التراب - يعنى البنيان - ولو لا أن النبي صلى الله عليه وسلم نهانا أن ندعوَ بالموت لدعوت به ، ثم أتينا مرة أخرى وهو يئس حائطاً له ، فقال : إن المسلم يُوجر في كل شيء إلا في شيء يجعله في هذا التراب . صحيح البخاري «باب نهي تمنى المريض الموت» ٨٤٧.

قوله «لم تنقصهم الدنيا» قال الحافظ في الفتح : أى لم تنقص أجورهم بمعنى أنهم لم يتعجلوها في الدنيا ، بل بقيت موفورة لهم في الآخرة ،

وكأنه عنى بأصحابه بعض الصحابة ممن مات في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأما من عاش بعده فإنهم اتسعت لهم الفتوح ، ويؤيده حديثه الآخر : هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق أجزنا على الله ، فمننا من مضى ولم يأكل من أجره شيئاً ، منهم مصعب بن عمير .

ويحتمل أن يكون عن جميع من مات قبله وإن من اتسعت له الدنيا لم يؤثر فيه ، إما لكثرة إخراجهم المال في وجوه البر ، أو كان من يحتاج إليه إذا ذاك كثيراً ، فكانت تقع الموقع ، ثم لما اتسع المال جداً وشمل العدل في زمن الخلفاء الراشدين استغنى الناس بحيث صار الغنى لا يجد محتاجاً يضع بره فيه ، ولهذا قال خباب ابن الأرت : لانجد له موضعاً إلا التراب أى الانفاق في البنيان ، وأغرب الداودي فقال : أراد خباب بهذا القول الموت أى لانجد للمال موضعاً إلا القبر . انتهى . كما في حاشية صحيح البخاري للشيخ أحمد على السهارنفوري .

وعن حارثة بن مضرب قال دخلت على خباب وقد اكتوى سبعاً ، فقال : لولا إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يتمنى أحدكم الموت لتمنيته ، ولقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أملك درهماً ، وإن في جانب بيتي لأربعين ألف درهم ، قال : ثم أتى بكفنه فلما رآه بكى ، وقال : لكن حمزة لم يوجد له كفن إلا بردة ملحاء إذا جعلت على رأسه قلصت عن قدميه وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه حتى مدت على رأسه وجعل على قدميه الإذخر . رواه أحمد والترمذي إلا أنه لم يذكر : ثم أتى بكفنه إلى آخره . كما في المرقاة .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لن يُدخل أحداً عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟! قال :

ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله بفضل ورحمة فسدّدوا وقاربوا ، ولا يتمنى أحدكم الموت إمّا محسناً فلعله أن يزداد خيراً ، وإما مسيئاً فلعله أن يستعيب . -
أى يسترضي : أى يطلب رضاء الله عنه بالتوبة - رواه البخاري في صحيحه
«باب نهى تمنى المريض الموت» .

قوله «فلعله أن يزداد خيراً» قال في المرقاة : وقد ورد في الحديث :
طوبى لمن طال عمره وحسن عمله» وفي لفظ : «خياركم أطولكم أعماراً
وأحسنكم أعمالاً» . والحديث الأول رواه الطبراني وأبو نعيم في الحلية ، والثاني
رواه الحاكم ، وأما ما نقله ابن حجر بلفظ : «خياركم من طال عمره وحسن عمله»
فلا أصل له وإنما هو ملفق من حديثين . اهـ .

وعن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تمنوا
الموت ، فإن هول المطلع - أى سكرات الموت - شديد ، وإن من السعادة
أن يطول عمر العبد ويرزقه الله عز وجل الإنابة . رواه أحمد كما في المشكاة «باب
تمنى الموت وذكره» .

قوله : «فإن هول المطلع الخ» قال في المرقاة : بضم الميم وتشديد الطاء
وفتح اللام موضع اطلاع من إشراف إلى انحدار ، والمراد ما يطلع عليه العبد من
أهوال الآخرة وفي مواقف القيامة ، أو أمور يطلع عقب الموت من أحوال
البرزخ ، وبه فسروا قول عمر : «لو أنّ لي مافي الأرض لأفتديت به من هول
المطلع» - اللهم احفظنا منه آمين يارب العالمين - .

وقال الطيبي : يريد به ما يشرف عليه العبد من سكرات الموت ، فإنه إنما
يتمنّاه من قلة صبر وضجر ، فإذا جاءه متمنّاه يزداد ضجراً ، فيستحق مزيد
سخط على سخط ، يعنى أي فائدة في تمنى الموت إلا تمنى الشدائد والآلام
وليس ذلك من شأن العاقل . انتهى ما ذكره في المرقاة .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : جلسنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرنا ورققنا ، فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء ، فقال : ياليتني متُّ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ياسعد ! أعندي تمنى الموت ؟ فردد ذلك ثلاث مرات ، ثم قال : ياسعد ! إن كنت خلقت للجنة فما طال عمرك وحسن من عملك ، فهو خير لك . رواد أحمد كما في المشكاة «باب تمنى الموت وذكره» .

قوله **﴿عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾** : «ياسعد ! أعندي تمنى الموت» قال في اللغات : وتمنيه منهي عنه ، أو المراد بحضرتي وحياتي تمنى الموت وحضورك عندي ومشاهدتك بجمالي وكمالي خير لك من الموت وإن حصل لك بعد الموت درجات ، فكل ذلك لا يوازي النظر إلى وجهي ، ولنعم ما قال بعض الفقهاء حين سئل أن الحياة خير للمؤمن أو الممات ؟ فأجاب : بأن في زمان النبوة الحياة خير وبعده الممات انتهى .

وقال ابن حجر : تمنى الموت وقد نهيت عن تمنيه ، لما فيه من النقص وعدم الرضا ، وفيه أن تمنيه لم يكن على عدم الرضا منه رضي الله عنه بل خوفاً على نفسه من نقصان في دينه ، وهو مستثنى كما صرح به العلماء . انتهى قول ابن حجر رحمه الله .

قوله «فهو خير لك» قال في المرقاة : وحذف الشق الآخر من التريد وهو إن كنت خلقت للنار فلا خير في موتك ولا يحسن الإسراع إليه ، ولا يخفى ما في الحذف من اللطف ، والجملة جزاء لقوله إن كنت خلقت .

قال الطيبي فإن قيل هو من العشرة المبشرة فكيف قال إن كنت ؟ أجب بأن المقصود التعليل ولا الشك .

وأخرج الطبراني عن عروة بن رُويم عن العرياض بن سارية رضي الله عنه ، وكان شيخاً كبيراً من أصحاب رسول الله ﷺ ، وكان يحب أن يقبض وكان يدعو : اللهم كبرت سني ، ورق عظمي ، فاقبضني إليك ، قال : فيينا أنا يوماً في مسجد دمشق ، إذا فتى شاب من أجمل الرجال ، وعليه دُواج أخضر - اللحاف الذي يلبس - فقال : ما هذا الذي تدعو ؟ قلت : كيف أدعو يا ابن أخي ؟ قال : قل اللهم حسن العمل ، وبلغ الأجل قلتُ من أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا ريسائل الذي يسأل الحزن من قلوب المؤمنين . قال الهيثمي ١٠ / ١٨٤ : وعروة وثقه غير واحد وسعيد بن مقلاص لم أعرفه ، وبقيه رجاله رجال الصحيح . انتهى .

وأما ما حكاها لنا القرآن عن سيدنا يوسف الصديق على نبينا و عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى على لسانه ﴿أنت وليّ في الدنيا والآخرة توفني مسلماً والحقني بالصالحين﴾ سورة يوسف : ١٠١ .

فأجاب عنه الحافظ ابن كثير مفسراً لقوله تعالى المذكور ٢ / ٤٩٢ / ٤٩٣ هذا دعاء من يوسف الصديق دعابه ربه عزوجل لما تمت نعمة الله عليه بإجتماعه بأبويه وإخوته وما من الله به عليه من النبوة والمُلْك ، سأل ربه عزوجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة ، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه قاله الضحّاك ، وأن يلحقه بالصالحين وهم إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره كما ثبت

في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول «اللهم في الرفيق الأعلى» ثلاثاً .

ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره ، لا أنه سأله ذلك منجزاً كما يقول الداعي لغيره أمانك الله على الإسلام ، ويقول الداعي : اللهم أحيينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين .

ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً وكان ذلك سائغاً في ملتهم كما قال قتادة قوله «توفني مسلماً وألحقني بالصالحين» لما جمع الله شمله وأقر عينه وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملكها ونضارتها اشتاق إلى الصالحين قبله .

وكان ابن عباس يقول : ماتني نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام . وكذا ذكر ابن جرير والسدي عن ابن عباس أنه أول نبي دعا بذلك .

وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام كما أن نوحاً أول من قال : «رب اغفر لي ولوالديّ ولن دخل بيتي مؤمناً» .

ويحتمل أنه أول من سأل إنجاز ذلك وهو ظاهر سياق قوله قتادة .

ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا ، قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا عبدالعزيز بن صهيب عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به الحديث وأخرجاد في الصحيحين .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ولا يدع به من قبل أن يأتيه إلا أن يكون قد وثق بعمله ، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عمله وإنه لا يزيد المؤمن عمله إلا خيراً. تفرد به أحمد .

وهذا فيما إذا كان الضر خاصاً به ، وأما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهدهم بالقتل ﴿قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾ .

وقالت مريم لما أ جاءها المخاض وهو الطلق إلى جذع النخلة ﴿يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ لما علمت من أن الناس يقذفونها بالفاحشة لأنها لم تكن ذات زوج وقد حملت ووضعت وقد قالوا ﴿يا مريم لقد جئت شيئا فورياً ، يأأخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً﴾ فجعل الله لها من ذلك الحال فرجاً ومخرجاً وأنطق الصبي في المهدي : بأنه عبد الله ورسوله ، فكان آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه .

وفي حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد والترمذي في قصة المنام والدعاء الذي فيه ﴿وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون﴾ .

وقال الإمام أحمد عن محمود بن لبيد مرفوعاً أن النبي ﷺ قال : «اثنان يكرههما ابن آدم : يكره الموت والموت خير للمؤمن من الفتن ، ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب» فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت .

ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ولا يزداد الأمر إلا شدة فقال : اللهم خذني إليك فقد سئمتهم وسئمتوني .

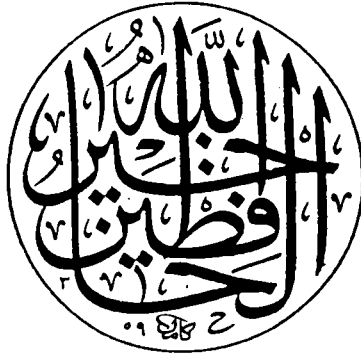
وقال البخاري رحمه الله لما وقعت له تلك الفتنة وجرى له مع أمير خراسان ماجرى قال : اللهم توفني إليك .

وفي الحديث «إن الرجل يمر بالقبر فيقول : «يا ليتني مكانك»

لما يرى من الفتن والزلازل والبلابل والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون انتهى
ماذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله بحذف .

وأما قول مريم عليها السلام : ﴿قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا
منسيا﴾ سورة مزيم : ٢٣ .

قال الحافظ ابن كثير ٣ / ١١٧ / ١١٨ : فيه دليل على جواز تمنى الموت
عند الفتنة فإنها عرفت أنها ستبلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها
فيه على السداد ، ولا يصدقونها في خبرها وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة
تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية فقالت : ﴿ياليتنى مت قبل هذا﴾ أى
قبل هذا الحال ﴿وكنت نسياً منسياً﴾ أى لم أخلق ولم أك شيئاً قاله ابن عباس .
وقال السدى قالت وهى تطلق من الحبل استحياء من الناس ياليتنى مت
قبل هذا الكرب الذي أنا فيه والحزن بولادتي المولود من غير بعل الخ انتهى
ماذكره الحافظ ابن كثير بحذف .



الفصل الثاني

الوعيد على من قتل نفسه لضر أصابه

إن من الناس مَنْ إذا أصابه المرض الطويل أو الكرب العظيم أو القحط أو شيء مما ابتلاه الله العبد به من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس فيجزع المصاب به ويفزع ، ولا يصبر عليه صبراً جميلاً ، ويسب نفسه وخالقه - معاذ الله - الذي خلقه فسواه وأعطاه الصحة إلى مدة مديدة فنسيه ، ويظن أن لا نجاة ولا خلاص من هذا الكرب إلا بقتل نفسه حتى يقتلها فيؤدي نفسه بفعلته التي فعل إلى أربعة أذرع من الأرض في بيت الغربة والوحشة والظلمة - إلا ما شاء الله - . وقد ورد الوعيد الشديد في هذا الباب . اللهم احفظنا جميعاً من هذا الفعل القبيح الشنيع .

قد بَوَّب البخاري في صحيحه «باب ماجاء في قاتل النفس» وأورد الأحاديث كما يلي :

عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : من حلف بملء غير الإسلام كاذباً متعمداً فهو كما قال ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ عُدَّ بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ .

وقال حجاج بن منهال حدثنا جرير بن حازم عن الحسن : حَدَّثَنَا جُنْدُبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ فَمَا نَسِيْنَاهُ وَمَا نَخَافُ أَنْ يَكْذِبَ جُنْدُبٌ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : كَانَ بَرَجَلِي جِرَاحٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ ، فَقَالَ اللَّهُ : بَدْرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : الذي يَخْنُقُ نَفْسَهُ يَخْنُقُهَا فِي النَّارِ ، وَالَّذِي يَطْعُنُهَا يَطْعُنُهَا فِي النَّارِ . انتهى .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ
 تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهَا خَالِداً مُخَلِّداً فِيهَا
 أبداً ، ومن تحسَّى - أى شرب - سماً فقتل نفسه فسُمِّه في يده يتحسَّاه في
 نار جهنم خالداً مُخَلِّداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديده في يده
 يتوجَّأُ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مُخَلِّداً فيها أبداً . رواه البخاري ومسلم كما
 في المشكاة «كتاب القصاص» .

وعن جابر أن الطفيل بن عمرو الدوسي لما هاجر النبي صلى الله عليه
 وسلم إلى المدينة هاجر إليه وهاجر معه رجل من قومه فمرض فجزع فأخذ
 مشاقص له فقطع بها براحمه فشخبت يده - أى سألت دمهما - حتى مات
 فرآه الطفيل بن عمرو في منامه وهيئة حسنة ورآه مغطياً يديه فقال له : ما صنع
 بك ربُّك فقال : غفرتي بهجرتي إلى نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، فقال : مالي
 أراك مغطياً يديك ؟ قال : قيل لي لن نُصلح منك ما أفسدت ، فقصَّها الطفيل
 على رسول الله ﷺ فقال : رسول الله ﷺ : اللهم وليديه فاغفر .
 رواه مسلم كما في المشكاة (كتاب القصاص) .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : مرض رجل فصيح عليه فجاء جاره
 إلى رسول الله ﷺ فقال : إنه قد مات ، قال : وما يدريك ؟ قال : أنا
 رأيته ، قال رسول الله ﷺ : إنه لم يمِت ، قال : فرجع فصيح عليه فجاء
 إلى رسول الله ﷺ فقال : إنه قد مات ، فقال النبي ﷺ : إنه لم يمِت
 قال : فرجع فصيح عليه ، فقالت امرأته : إنطلق إلى رسول الله ﷺ
 فأخبره ، فقال الرجل : اللهم العنه ، قال ثم انطلق الرجل فرآه قد نحر نفسه
 بمشقص معه ، فانطلق إلى النبي ﷺ فأخبره أنه قد مات ، قال :

وما يدريك ؟ قال رأيتُه ينحر نفسه بمشاقص معه ، قال : أنت رأيتُه ، قال :
نعم ، قال إذاً لا أصلي عليه . رواه أبو داود في كتاب الجنائز .

قوله : « لا أصلي عليه » قال الإمام النووي رحمه الله : أتى
رسول الله ﷺ برجل قتل نفسه بمشاقص فلم يصل عليه . في هذا
الحديث دليل لمن يقول : لا يصل على قاتل نفسه لعصيانه ، وهذا مذهب
عمر بن عبدالعزيز والأوزاعي ، وقال الحسن والنخعي وقتادة ومالك وأبو حنيفة
والشافعي وجماهير العلماء : يصل على من يصر على قتله ، وهذا الحديث بأن النبي
ﷺ لم يصل عليه بنفسه زجراً للناس عن مثل فعله ، وصلت عليه
الصحابة ، وهذا كما ترك النبي ﷺ الصلاة في أول الأمر على من عليه دين
زجراً لهم عن التساهل في الاستدانة وعن إهمال وفائها وأمر أصحابه بالصلاة
عليه فقال ﷺ : صلوا على صاحبكم .

قال القاضي : مذهب العلماء كافة الصلاة على كل مسلم : محدود
ومرجوم ، وقاتل نفسه ، وولد الزنا . وعن مالك وغيره أن الإمام يجنب الصلاة
على مقتول في حد ، وأن أهل الفضل لا يصلون على الفساق زجراً لهم ، وعن
الزهري لا يصل على المرجوم ويصل على المقتول في قصاص ، وقال أبو حنيفة :
لا يصل على محارب ولا على قتيل الفئة الباغية ، وقال قتادة : لا يصل على ولد
الزنا ، وعن الحسن لا يصل على النفساء تموت من الزنا ولا على ولدها اهـ من
التعليق المحمود على سنن أبي داود .

وعن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال : شهدنا خير فقال رسول الله
ﷺ لرجل ممن يدعى الإسلام : هذا من أهل النار ، فلما حضر القتال
قاتل الرجل أشد القتال حتى كثرت به الجراحة ، فكاد بعض الناس يرتاب

فوجد الرجل ألم الجراحة فأهوى بيده إلى كِنَانَتِه فاستخرج منها أسهماً فنحربها
 نفسه فاشتد رجال من المسلمين فقالوا : يا رسول الله - ﷺ - صدق الله
 حديثك انتحر فلان فقتل نفسه فقال : قم يا فلان فأذن أن لا يدخل الجنة إلا
 مؤمن إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر . صحيح البخاري « كتاب المغازي »
 « باب غزوة خيبر » .

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ التقى
 هو والمشركون فاقتتلوا فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره ومال الآخرون
 إلى عسكرهم وفي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل لا يدع لهم
 شاذة ولا فاذة إلا أتبعها يضربها بسيفه ، فقال : ما أجراً منّا اليوم أحد كما أجراً
 فلان ، فقال رسول الله ﷺ : أما إنه من أهل النار ، فقال رجل من
 القوم : أنا صاحبه ، قال : فخرج معه كلما وقف وقف معه وإذا أسرع
 أسرع معه ، قال : فجرح الرجل جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع سيفه
 بالأرض ودُبابه بين ثديه ثم تحامل - أى مال - على سيفه فقتل نفسه ، فخرج
 الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أشهد أنك رسول الله ، قال : وماذا ؟
 قال الرجل الذي ذكرت آنفاً إنه من أهل النار ، فأعظم الناس ذلك ، فقلت
 أنا لكم به فخرجت في طلبه فجرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع
 نسل سيفه في الأرض ودُبابه بين ثديه ثم تحامل عليه فقتل نفسه ، فقال رسول
 الله ﷺ عند ذلك : إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس
 وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو
 من أهل الجنة . المصدر السابق المذكور .

وفي الحديث : التحذير من الاغترار بالأعمال . فافهم حق الفهم .

الباب الخامس
في عيادة المريض والأجر عليها

الفصل الأول

عيادة المريض والأجر عليها

عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ :
أطعموا الجائع وعودوا المريض وفكوا العاني - أي الأسير - .

وعن البراء - رضي الله عنه - قال أمرنا النبي ﷺ بسبع ، ونهانا عن سبع ، أمرنا باتباع الجنائز ، وعيادة المريض ، وإجابة الداعي ، ونصر المظلوم وإبرار القسم ، ورد السلام ، وتشميت العاطس ، ونهانا عن آنية الفضة ، وخاتم الذهب والحريز والديباج والقسيّ والإستبرق . رواهما البخاري في كتاب الجنائز «باب الأمر باتباع الجنائز» .

قال العيني في عمدة القاري شارحاً لهذا الحديث : الوجه الثاني في عيادة المريض : هي سنة ، وقيل : واجبة بظاهر حديث أبي هريرة - وهو : أن أبا هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : حق المسلم على المسلم خمس : ردُّ السلام وعيادة المريض واتباع الجنائز وإجابة الدعوة وتشميت العاطس - .

وقد روى في ذلك عن جماعة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم - ثم سرد أسماء الصحابة رضي الله عنهم - وهم أبو موسى وثوبان وأبو هريرة - إلى قوله - وأم سليم وأم العلاء . ثم قال :

فحديث أبي موسى - رضي الله عنه - عند البخاري «عودوا المريض وأطعموا الجائع وفكوا العاني» .

وحديث ثوبان عند مسلم : «إن المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع ، قيل : يارسول الله ! وما خرفة الجنة ؟ قال : جناها .

وحديث أبي هريرة عند البخاري - كما مر آنفاً - .
وحديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند الترمذي «مامن مسلم يعود مسلماً إلا يبعث الله سبعين ألف ملك يصلون عليه أى ساعة من النهار كانت حتى يمسي وأى ساعة من الليل حتى يصبح» .

وحديث أبي أمامة عند أحمد « من تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده على جبهته أو يده ويسأله كيف هو ؟ » .

وحديث جابر بن عبدالله عند أحمد أيضاً : «من عاد مريضاً لم يزل يخوض في الرحمة حتى يجلس فإذا جلس اغتمس فيها» .

وحديث جابر بن عتيك عند أبي داود «إن رسول الله ﷺ عاد عبدالله ابن ثابت» الحديث مطولاً .

وحديث أبي مسعود عند الحاكم «للمسلم على المسلم أربع خلال : يشتمته إذا عطس ، ويجيبه إذا دعاه ، ويشهده إذا مات ، ويعوده إذا مرض» .

وحديث أبي سعيد عند ابن خبان «عودوا المريض واتبعوا الجنائز» .

وحديث عبدالله بن عمر عند مسلم «من يعود منكم سعد بن عبادة فقام وقمنا معه ونحن بضعة عشرة» .

وحديث أنس - رضي الله عنه - عند البخاري «عاد النبي ﷺ غلاماً يهودياً كان يخدمه» .

وحديث أسامة بن زيد عند الحاكم قال «خرج رسول الله ﷺ يعود عبدالله بن أبي في مرضه الذي مات فيه» .

وحديث زيد بن أرقم «عادني رسول الله ﷺ من وجع كان بعيني» .
وقال الحاكم صحيح على شرطهما .

وحدیث سعد بن أبی وقاص عند الحاکم قال : «اشتکت بمكة فجاءني رسول الله ﷺ يعودني فوضع يده على جبهتي» .

وحدیث ابن عباس عند الحاکم أيضاً «من عاد أخاه المسلم فقعد عند رأسه» الحدیث . وقال : صحیح علی شرط البخاری .

وحدیث عمرو عنده أيضاً «إذا عاد أحدكم مريضاً فليقل اللهم اشف عبدك» وقال صحیح علی شرط مسلم .

وحدیث أبی أيوب عند ابن أبي الدنيا «عاد رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار فأكب عليه يسأله ، قال يارسول الله ! ماغمضت منذ سبع ليال ، ولا أحد يحضرني ، فقال رسول الله ﷺ : أي أخي ! أصبر ، أي أخي ! أصبر ، تخرج من ذنوبك كما دخلت فيها» .

وحدیث عثمان عند ^(١) قال : دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم عودني وأنا مريض ، فقال أعيدك بالله الأحد الصمد» الحدیث وسنده جيد .

وحدیث كعب بن مالك عند الطبراني في الكبير «من عاد مريضاً خاض في الرحمة ، فإذا جلس استنقع فيها» .

وحدیث عبدالله بن أبی بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده عند الطبراني أيضاً «من عاد مريضاً فلا يزال في الرحمة حتى إذا قعد عنده استنقع فيها ، ثم إذا خرج من عنده فلا يزال يخصوص فيها حتى يروح من حيث خرج» .

(١) كذا يياض في عمدة القاري .

وحدیث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند ابن مردويه «قال يارسول الله مالنا من الأجر في عيادة المريض؟ فقال: إن العبد إذا عاد المريض خاض في الرحمة إلى حقوه» .

وحدیث أبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه عند ابن أبي شيبة في مصنفه قال قال رسول الله ﷺ: «من عاد مريضاً أو أماًط أذى عن الطريق فحسنته بعشر أمثالها» .

وحدیث سلمان عند الطبراني قال «دخل عليّ رسول الله ﷺ يعودني فلما أراد أن يخرج قال: يا سلمان! كشف الله ضرك وغفر ذنبك وعافاك في دينك وجسدك إلى أجلك» .

وحدیث عثمان بن أبي العاص عند الحاكم في المستدرک «جاءني رسول الله ﷺ يعودني من وجع اشتد لي» .

وحدیث عوف بن مالك عند الطبراني عن النبي ﷺ «قال: «عودوا المريض واتبعوا الجنابة» .

وحدیث أبي الدرداء عند الطبراني أيضاً «أن رسول الله ﷺ قال: إن الرجل إذا خرج يعود أخاه مؤمناً خاض في الرحمة إلى حقويه، فإذا جلس عند المريض فاستوى جالساً غمرته الرحمة» .

وحدیث صفوان بن عسال عند الطبراني أيضاً قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من زار أخاه المؤمن خاض في الرحمة حتى يرجع ومن زار أخاه المؤمن خاض في رياض الجنة حتى يرجع» .

وحدیث معاذ بن جبل عند الطبرانی أيضاً «قال قال رسول الله ﷺ :
خمس من فعل واحدة منهن كان ضامناً على الله تعالى ، من عاد مريضاً أو
خرج مع جنازة أو خرج غازياً أو دخل على إمامه يريد تعزيره وتوقيره أو قعد في
بيته فسلم الناس منه وسلم من الناس» .

وحدیث جبير بن مطعم عنده أيضاً قال «رأيت رسول الله ﷺ عاد
سعيد بن العاص فرأيت رسول الله ﷺ يكمده بحرقه» .

وحدیث عائشة رضي الله قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
«العيادة سنة عودوا غباً ، فإن أغمى على مريض فحتى يفيق» .

وحدیث فاطمة الخزاعية عند ابن أبي الدنيا قالت : «عاد رسول الله
صلى الله تعالى عليه وسلم امرأة من الأنصار فقال : كيف تجدك ؟ قالت :
بخير يارسول الله» الحدیث .

وحدیث أم سليم عند ابن أبي الدنيا أيضاً في كتاب المرضى كفارات قالت :
«مرضت فعادني رسول الله ﷺ فقال : يا أم سليم ! اتعرفين النار والحديد
وخبث الحديد ؟ قلت : نعم يارسول الله ، قال : فابشري يا أم سليم فإنك إن
تخلصي من وجعك هذا تخلصي منه كما يخلص الحديد من النار من خبثه» .

وحدیث أم العلاء عند أبي داود قالت : «عادني رسول الله صلى الله تعالى
عليه وسلم وأنا مريضة» الحدیث انتهى مقاله العيني .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد ص ٧٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أصبح منكم اليوم صائماً ؟

قال : أبوبكر رضي الله عنه أنا ، قال : من عاد منكم اليوم مريضاً ؟ قال أبوبكر : أنا ، قال : من شهد منكم اليوم جنازة ؟ قال أبوبكر : أنا ، قال : من أطعم اليوم مسكيناً ؟ قال أبوبكر : أنا . قال مروان : بلغني أن النبي ﷺ قال : «ما اجتمعت هذه الخصال في رجل في يوم إلا دخل الجنة .

وأخرج أحمد ٩٧/ ١ عن عبدالله بن يسار أن عمرو بن حُرَيْث عاد الحسن بن علي - رضي الله عنهما - فقال له علي : أتعود الحسن وفي نفسك ما فيها ؟ فقال له عمرو إنك لست بربي فتصرف قلبي حيث شئت ، قال علي رضي الله عنه : أما إن ذلك لا يمنعنا أن نؤدى إليك النصيحة ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من مسلم عاد أخاه إلا ابتعث الله له سبعين ألف مالك يصلون عليه من أيّ ساعات النهار كان حتى يمسي ، ومن أيّ ساعات الليل كان حتى يصبح . وأخرجه البزار ، قال الهيثمي ٣١/ ٣ : ورجال أحمد ثقات .

وأخرج البخاري في الأدب ص ٧٨ عن عبدالله بن أبي الهذيل قال : دخل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه على مريض يعوده ومعه قوم وفي البيت امرأة فجعل رجل من القوم ينظر إلى المرأة ، فقال له عبدالله : لو أنفقات عينك كان خيراً لك .

أخرج البزار والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : عاد رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار ، فلما دنا من منزله سمعه يتكلم في الداخل ، فلما استأذن عليه ، دخل (عليه) فلم يرَ أحداً ، فقال له رسول الله ﷺ : سمعتك تكلم غيرك ، قال : يارسول الله ، لقد دخلتُ الداخل

اغتماً بكلام الناس مما بي من الحمى ، فدخل عليّ داخل ، مارأيت رجلاً
(قط) بعدك أكرم مجلساً ، ولا أحسن حديثاً منه ، قال : «ذاك جبيل ، وإن
منكم لرجالاً لو أن أحدهم يُقسم على الله لأبره . قال الهيثمي ١٠ / ٤١
رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط وأسانيدهم حسنة . انتهى .
وقال في الهامش : وحسنه الحافظ في زوائد البزار . راجع «حياة الصحابة
تأليف الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي رحمه الله .

قوله : «من الحمى» قال في «حياة الصحابة» المعنى : لقد دخلت إلى
الداخل من غمي من كلام الناس ، وفي المجمع : «لو دخلت الداخل اغتماً
من كلام الناس مماتي من الحمى» وهو كلام مصحّف ، وقد صحّحناه من
مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق لمعجم الطبراني الكبير . انتهى .

وأخرج البخاري في الأدب ص ٧٢ عن عبدالرحمن بن سعيد عن أبيه قال
كنت مع سلمان رضي الله عنه وعاد مريضاً في كندة ، فلما دخل عليه قال :
أبشر فإن مَرَضَ المؤمن يجعله الله له كفارة ومستعباً - مسترضى - وإن مَرَضَ
الفاجر كالبعير عقله أهله ثم أرسلوه فلا يدرى لم عُقل ولم أرسل .

وأخرج أحمد عن أبي فاختة قال : عاد أبو موسى الأشعري الحسن بن علي -
رضي الله عنهم - قال : فدخل علي فقال : أعائداً جئت يا أبا موسى أم زائراً
فقال : يا أمير المؤمنين لا ، بل عائداً ، فقال علي رضي الله عنه : فإني سمعت
رسول الله ﷺ : ما عاد مسلم مسلماً إلا صلى عليه سبعون ألف ملك من
حين يصبح إلى أن يمسي وجعل الله تعالى له خريفاً في الجنة . الحديث .

وعن عائشة قالت : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وُعِكَ أبو بكر وبلال ، قالت : فدخلت عليهما فقلت : ياأبت كيف تجدك ؟ ويا بلال كيف تجدك ؟ قالت : وكان أبوبكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبَّح في أهله
والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلعت عنه يقول :

ألا ليت شعري هل أيتنَّ ليلة
بوادٍ وحولى إذخر وجيليل
وهل أردن يوماً مياه مجنَّة
وهل يبُدون لي شامة وطفيل

قالت عائشة : فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقال : اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبِّبنا مكة أو أشدَّ ، اللهم وصحِّحها وبارك لنا في مدَّها وصاعها ، وانقل حمَّها فاجعلها بالجنحة . صحيح البخاري «باب عيادة النساء الرجال» .

قوله «فدخلت عليهما» لعيادتهما وهما متوعكان .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ دخل على أعرابي يعود ، قال : وكان النبي ﷺ إذا دخل على مريض يعوده ، قال له : لا بأس طهور إن شاء الله - أى هو طهور لك من ذنوبك أى مطهر - قال : كلا بل هي حمى تفور أو تثور ، على شيخ كبير تُزيه القبور ، فقال النبي ﷺ : فنعم إذا . صحيح البخاري «باب عيادة الأعراب» .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ : حق المسلم على المسلم ست ، قيل : ما هن يارسول الله ؟ قال : إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمدالله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه . رواه مسلم كما في المشكاة «باب عيادة المريض» .

قوله «إذا مرض فعده» قال في المرقاة : ولو مرة ، وما اشتهر في مكة أن بعض الأيام لايعاد المريض فيها فلا أصل له بل يبطله ماورد في تفسير قوله تعالى ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ إن المراد به العيادة ونحوها ، وزعم أن السبت لايعاد فيه مما أدخله يهودى على المسلمين لأنه كان يطب ملكاً فأمره بالجميئ إليه يوم سبته فخشى من قطعه فقال له : إن دخول الطبيب على المريض يوم السبت لا يصلح .

قال ابن حجر : وقول بعض أصحابنا : تستحب في الشتاء ليلا وفي الصيف نهراً غريب اهـ ، ويمكن أن يوجه بأن المقصود من العيادة حصول التسلى والاشتغال بالأصحاب والأحباب حالة التخلى ، فإن لقاء الخليل شفاء العليل مع مافيه من التوجه إلى الجناب العلى ، والتضرع بالدعاء الجلى والخفى ، ولما كان ليل الشتاء ونهار الصيف طويلاً ناسب أن يشغله عما فيه من الألم ويخففوه عنه حمل السقم بالحضور بين يديه والتأنس بالكلام والدعاء والتنفيس لديه ، وهذا أمر مشاهد من ابتلى به لا يخفى عليه . انتهى .

قوله «حق المسلم على المسلم ست» قال في المرقاة : هذا الحديث لا يناقض الأول في العدد - أى المذكور فيه : حق المسلم على المسلم خمس - فإن

هذا زائد والزيادة مقبولة ، والظاهر أن الخمس مقدم في الصدور
ومن قال : لفلان عليّ خمسة دراهم وكانت ستة كان صادقا ، ولو قال مرة
أخرى لفلان عليّ ستة دراهم كان أيضا صادقا . انتهى .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مات إنسان كان رسول الله
ﷺ يَعُودُهُ ، فمات بالليل ، فدفنوه ليلاً ، فلما أصبح أخبروه فقال :
مامنعكم أن تُعلموني ؟ قالوا : كان الليلُ فكرهنا - وكانت ظلمة - أن نَشُقَّ
عليك ، فأتى قبره فصلّى عليه . رواه البخاري «باب الإذن بالجنّاة» .

قوله «مات إنسان كان رسول الله ﷺ يَعُودُهُ» قال الحافظ في
الفتح شارحاً لهذا الحديث : وقع في شرح الشيخ سراج الدين عمر بن الملقن
أنه الميت المذكور في حديث أبي هريرة الذي كان يقيم المسجد وهو وهم منه
لتغاير القصتين ، فقد تقدم أن الصحيح في الأول أنها امرأة وأنها أم محجن .
وأما هذا فهو رجل واسمه طلحة بن البراء بن عمير البلوي حليف الأنصار ،
روى حديثه أبو داود مختصراً والطبراني من طريق عروة بن سعيد الأنصاري عن
أبيه - عن حسين بن وحوح الأنصاري وهو بمهملتين بوزن جعفر - .

«إن طلحة بن البراء مرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقال : إني لا أرى
طلحة إلا قد حدث فيه الموت فأذنوني به وعجلوا» فلم يبلغ النبي ﷺ بني
سالم بن عوف حتى توفي ، وكان قال لأهله لما دخل الليل : إذا مت فادفنوني
ولا تدعوا رسول الله ﷺ فأبى أخاف عليه يهوداً أن يصاب بسبيي ،
فأخبر النبي ﷺ حين أصبح ، فجاء حتى وقف على قبره فصف الناس
معه ، ثم رفع يديه فقال :

«اللهم الق طلحة يضحك إليك وتضحك إليه» .

انتهى مقاله الحافظ في الفتح

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : اشتكى سعدُ بن عبادَةَ شكوى له ، فأتاه النبي ﷺ يعبده مع عبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهم فلما دخل عليه فوجده في غاشية أهله ، فقال : قد قضيتُ ، قالوا : لا يارسول الله ، فبكى النبي صلى الله عليه وسلم فلما رأى القومُ بكاء النبي صلى الله عليه وسلم بكوا ، فقال : ألا تسمعون إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا وأشار إلى لسانه أو يرحم ، وإن الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، وكان عمر رضي الله عنه يضرب فيه بالعصا ويرمى بالحجارة ويحشى بالتراب . صحيح البخاري «باب البكاء عند المريض»

قال العيني شارحاً لهذا الحديث : ذكر ما يستفاد منه : فيه استحباب عيادة الفاضل المفضول ، واستحباب عيادة المريض ، وفيه النهي عن المنكر وبيان الوعيد عليه ، وفيه جواز البكاء عند المريض ، وفيه جواز اتباع القوم للباكي في بكائه . وفيه أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه انتهى .

وعن أنس - رضي الله عنه - أن غلاماً ليهود كان يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعبده ، فقال : أسلم فأسلم . وقال سعيد بن المسيب عن أبيه - هو ممن بايع تحت الشجرة - لما حضر - أي حضر الموت عنده - جاءه النبي ﷺ . صحيح البخاري : «باب عيادة المشرك» .

وأخرجه ابن السني في كتابه «عمل اليوم والليلة» رقم الحديث ٥٥٤ أطول من هذا حيث قال :

أخبرني أبو عروبة عن أبي بريدة عن أبيه قال : كنا جلوسا

عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اذهبوا بنا نعود جارنا اليهودي ، قال : فأتيناه ، فقال : كيف أنت يافلان ؟ فسأله ثم قال : يافلان ! اشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فنظر الرجل إلى أبيه وهو عند رأسه ، فلم يكلمه ، فسكت ، فقال : يافلان ! اشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فنظر الرجل إلى أبيه ، فلم يكلمه ثم سكت ، ثم قال : يافلان ! اشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فقال له أبوه : اشهد له يابني ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنتك رسول الله ، فقال : الحمد لله الذي أعتق رقبتك من النار .

ورواه أبوداود في سننه مختصراً منه «باب عيادة الذمي» .

وعن ثابت البناني عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ من توضع فأحسن الوضوء وعاد أخاه المسلم محتسباً بوعده من جهنم مسيرة سبعين خريفاً ، قلت : يا أبا حمزة ! وما الخريف ؟ قال : العام . قال أبو داود : والذي تفرد به البصريون منه العيادة وهو متوضئ . رواه أبوداود في سننه «باب في فضل العيادة على الوضوء» .

وروى أبوداود في الباب المذكور حديثاً آخر عن علي - رضي الله عنه - قال ما من رجل يعود مريضاً ممسياً إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح ، وكان له خريف في الجنة ، ومن أتاه مصباحاً خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يمسي وكان له خريف في الجنة .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لما أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق رماه رجل في الأكل فضر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيمة في المسجد يعود من قريب . رواه أبوداود في سننه «باب في العيادة مراراً» .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ، قال : يارب ! كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ، يا ابن آدم ! استطعمتك فلم تطعمني قال : يارب ! كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ، يا ابن آدم ! استسقيتك فلم تسقني ، قال : يارب ! كيف اسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي . رواد مسلم كما في المشكاة «باب عيادة المريض وثواب المرض» .

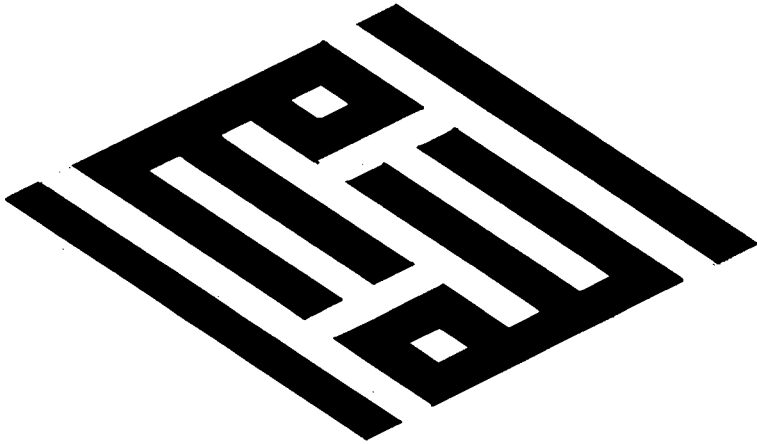
قوله : «يا ابن آدم مرضت فلم تعدني» قال في المرقاة : أراد به مرض عبده ، وإنما أضاف إلى نفسه تشريفاً لذلك العبد فنزله منزلة ذاته . والحاصل أن من عاد مريضاً لله فكأنه زار الله . انتهى .

قوله «لوجدتني عنده» قال في المرقاة : أى لوجدت رضائي عنده ، وفيه إشارة إلى أن للعجز والانكسار عنده تعالى مقداراً واعتباراً .

قال الطيبي : وفي العبارة إشارة إلى أن العيادة أكثر ثواباً من الاطعام والإسقاء حيث خص الأول بقوله : وجدتني عنده . فإن فيه إيماء إلى أن الله أقرب إلى المنكسر المسكين اهـ وأيضا العيادة أفضل من العبادة . وقد قيل : لم يرد في الثواب أعظم من هذا . انتهى بحذف .

قوله «وجدت ذلك عندي» فإن الله لا يضيع أجر المحسنين وفي الحديث بيان أن الله تعالى عالم بالكائنات يستوى في علمه الجزئيات والكلديات وأنه مبتل عباده بما شاء من أنواع الرياضات ليكون كفارة للذنوب ورفعاً للدرجات العاليات . مرقاة .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ : من عاد مريضاً نادى مناد من السماء طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً . رواه ابن ماجه واللفظ ، ورواه الترمذي وحسنه ، كما في المشكاة «باب عيادة المريض وثواب المرض» .



الفصل الثاني

في مايقوله المريض ويقال عنده ويقرأ عليه وسؤاله عن حاله

عن معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات ، فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن وأمسح بيد نفسه لبركتها . فسألت الزهري - القائل معمر - كيف ينفث ؟ قال : كان ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهه . صحيح البخاري «كتاب المرضى» باب الرقي بالقرآن والمعوذات

وعن عروة أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده ، فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه طففت أنفث على نفسه بالمعوذات الذي كان ينفث وأمسح بيد النبي صلى الله عليه وسلم عنه . صحيح البخاري «كتاب المغازي» «باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته الخ» .

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه ثم نفث فيهما ، فقرأ فيهما : قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات ، قالت عائشة : فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك به . متفق عليه .

وعن ميمون بن مهران عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : إذا دخلت على مريض فمره فليدع لك ، فإن دعاه كدعاء الملائكة . رواه ابن ماجه في سننه وابن السنن في كتابه «عمل اليوم والليلة» بسند صحيح . وأورده صاحب المشكاة في «باب عيادة المريض»

لكن ميمون بن مهران لم يدرك عمر . كما في المرقاة .

قوله «فإن دعاءه كدعاء الملائكة» لأنه أشبههم في التنقى من الذنوب أو في دوام الذكر والدعاء والتضرع واللجاء . مرقاة .

قال الراقم : طوبى لهؤلاء الذين يداومون على الذكر والدعاء واللجأ في حالة مرضهم أيضاً ، يرجى أن يصدق عليهم قوله تعالى ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً على جنوبهم﴾ الآية ، آل عمران : ٩١ .

ومن الناس من لا يذكر الله ولا يتضرع إليه في صحته ولا في مرضه بل يسب الله نفسه في حالة المرض والنوائب - نعوذ بالله من شرور أنفسنا وأنفسهم - وهو الله الذي يكفر الذنوب ويرفع درجاتهم بسبب الأمراض والبلاء والنوائب . ولكن أكثر الناس لا يشعرون ولا يشكرون ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً .

وكانت جدتي ممن تذكر الله على كل أحيانها - والحمد لله - وكانت تذكر ربها في حالة المرض أكثر فأكثر ، فاشتكت ذات ليلة شكوى لها ، وفقني الله لخدمتها في تلك الليلة ، فلما أصبحت قالت : يا بنى ! ما اكتحلت بالنوم الليلة قط ، قلت : لماذا ؟ قالت : لما تعب لساني وقلبي ونحى بكثرة ذكر ربى أردت النوم والإستراحة بتركه فما قدرت عليه ، كلما أردت أن أكف لسانى يجري القلب بذكره تعالى أكثر فأكثر من حالته الأولى حتى تنفس الصبح وحن وقت الصلاة - ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء - اللهم اجعلنا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات في الصحة والمرض ، ومن الذين يذكرونك قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم آمين يارب العالمين .

حدثنا مسدد قال حدثنا عبدالوارث عن عبدالعزيز قال : دخلت أنا وثابت

على أنس بن مالك - رضي الله عنه - فقال ثابت : يا أبا حمزة ! اشتكيتُ ، فقال أنس : ألا أرقيك برقية رسول الله ﷺ ؟ قال : بلى ، قال : اللهم ربَّ الناس مُذهبَ البأس ، اشف أنت الشافي لا شافي إلا أنت شفَاءً لا يغادر سقماً . صحيح البخاري «باب رقية النبي ﷺ» .

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يُعوذُ بعض أهله بمسح بيده اليمنى ويقول : اللهم ربَّ الناس أذهبِ البأسَ واشفِهِ وأنت الشافي لا شفاءَ إلا شفاءك شفَاءً لا يغادر سقماً . صحيح البخاري «باب رقية النبي صلى الله عليه وسلم» .

وروى البخاري في نفس الباب عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول للمريض : بسم الله تربة أرضنا وريقة بعضنا يشفى به سقيمنا .

وفي رواية له أيضا عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في الرقية : تربة أرضنا وريقة بعضنا يُشفى به سقيمنا بإذن ربِّنا

قال في المرقاة : (بسم الله) أى أتبرك به (تربة أرضنا) أى هذه تربة أرضنا ممزوجة (بريقة بعضنا) وهذا يدل على أنه كان يتفل عند الرقية .

قال القرطبي فيه دلالة على جواز الرق من كل الآلام ، وإن ذلك كان أمراً فاشياً معلوماً بينهم ، قال ووضع النبي ﷺ سبابته ، ووضعها عليه يدل على استحباب ذلك عند الرق .

قال النووي : المراد بأرضنا جملة الأرض ، وقيل أرض المدينة خاصة لبركتها ، وكان النبي ﷺ يأخذ من ريق نفسه على أصبعه السبابة ثم يضعها

على التراب فيعلق بها منه فيمسح بها على الموضع الجريح والعليل ويتلفظ بهذه الكلمات في حال المسح .

قال الأشرف : هذا يدل على جواز الرقية ما لم تشتمل على شيء من المحرمات كالسحر وكلمة الكفر اه ، ومن المحذور أن تشتمل على كلام غير عربي أو عربي لايفهم معناه ولم يرد من طريق صحيح فإنه يحرم كما صرح به جماعة من أئمة المذاهب الأربعة لاحتمال اشتماله على كفر .

وقال التوربشتي : الذي يسبق إلى الفهم من صنيعه ذلك ومن قوله هذا أن «تربة أرضنا» إشارة إلى فطرة آدم عليه الصلاة والسلام ، «وريقة بعضنا» إشارة إلى النطفة التي خلق منها الإنسان ، فكأنه يتضرع بلسان الحال ويعرض بفحوى المقال أنك اخترعت الأصل الأول من طين ثم أبدعت بنيه من ماء مهين ، عليك أن تشفى من كان هذا شأنه ، وتمن بالعافية على من استوى في ملكك حياته ومماته .

وقال القاضي : قد شهدت المباحث الطبية على أن الريق له مدخل في النضج وتبديل المزاج ، ولتراب الوطن تأثير في حفظ المزاج الأصلي ودفع نكايه المضرات ، ولذا ذكر في تيسير المسافرين أنه ينبغي أن يستصحب المسافر تراب أرضه إن عجز عن استصحاب مائه حتى إذا ورد ماء مااعتاده جعل شيئاً منه في سقائه وشرب الماء منها ليأمن من تغير مزاجه ، ثم إن الرقي والعزائم لها آثار عجيبة تتفاعد العقول عن الوصول إلى كنهها اه وقد علم كل أناس مشربهم وكل إناء يرشح بما فيه . انتهى مختصراً .

عن عائشة بنت سعد أن أباهما قال : تشكَّيْتُ بمكة شكوى شديداً ، فجاءني النبي ﷺ يعودني ، فقلت : يابني الله ! إني أترك مالا وإني لا أترك

إلا ابنة واحدة فأوصى بثلاثي مالي واترك الثلث ؟ قال : لا ، قلت فأوصى
بالنصف وأترك النصف ؟ قال : لا ، قلت : فأوصى بالثلث وأترك لها الثلثين ؟
قال : الثلث والثلث كثير ، ثم وضع يده على جبهته ثم مسح وجهي وبطني ثم
قال اللهم اشف سعداً ، وأتم له هجرته ، فما زلت أجد برّده على كبدي ،
فما يخال عليّ حتى الساعة .

رواه البخاري في صحيحه «كتاب المرضى» «باب وضع اليد على المريض» ورواه
أيضاً في «كتاب الوصايا» «باب الوصية بالثلث» .
بوّب النووي في «كتاب الأذكار» «باب ما يقوله المريض ويقال عنده الخ»
وسرد الأحاديث كمايلي :

روينا في صحيح مسلم رحمه الله عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أنه
شكى إلى رسول الله ﷺ وجعا يجده في جسده فقال له رسول الله ﷺ :
ضع يدك على الذي تألم من جسده وقل : باسم الله ثلاثاً وقل سبع مرات :
أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر .

وروينا في صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : عادني
النبي ﷺ فقال : اللهم اشف سعداً اللهم اشف سعداً اللهم اشف سعداً .
قال الراقم : وأورده البخاري في صحيحه تعليقاً عن عائشة بنت سعد
ولفظه : قالت عائشة بنت سعد عن أبيها قال النبي ﷺ : اللهم اشف
سعداً . «باب دعاء العائد للمريض» . انتهى .

وروينا في سنن أبي داود والترمذي بالإسناد الصحيح عن ابن عباس رضي
الله عنهما عن النبي ﷺ قال : من عاد مريضاً لم يحضر أجله فقال عنده

سبع مرات : أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك ، إلا عافاه الله سبحانه وتعالى من ذلك المرض ، قال الترمذي حديث حسن ، وقال الحاكم أبو عبد الله في كتابه المستدرک علی الصحیحین : هذا حديث صحيح على شرط البخاري .

وروينا في سنن أبي داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال قال النبي ﷺ : إذا جاء الرجل يعود مريضاً فليقل : اللهم اشف عبدك ينكأ لك عدواً أو يمشی لك إلى صلاة . لم يضعفه أبوداود ، قلت : ينكأ بفتح أوله وهمز آخره ومعناه يؤلمه ويوجعه .

وروينا في كتاب الترمذي عن علي رضي الله عنه قال : كنت شاكياً فمرني رسول الله ﷺ وأنا أقول : اللهم إن كان أجلى قد حضر فأرحني وإن كان متأخراً فارفعني وإن كان بلاء فصبرني ، فقال رسول الله ﷺ كيف قلت ؟ فأعاد عليه ما قال ، فضربه برجله وقال عافه أو اشفه ، شك شعبة قال فما اشتكيت وجعي بعد ، قال الترمذي حديث حسن .

وروينا في كتاب الترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال من قال : لا إله إلا الله والله أكبر صدقه ربه ، فقال : لا إله إلا أنا وأنا أكبر ، وإذا قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له قال يقول : لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي ، وإذا قال : لا إله إلا الله له الملك وله الحمد قال : لا إله إلا أنا لي الملك ولي الحمد ، وإذا قال : لا إله إلا الله لا حول ولا قوة إلا بالله ، قال : لا إله إلا الله أنا ولا حول ولا قوة إلا بي ، وكان يقول من قالها في مرضه ثم مات لم تطعمه النار . قال الترمذي حديث حسن .

وروينا في صحيح مسلم وكتب الترمذي والنسائي وابن ماجه بالأسانيد الصحيحة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال يا محمد اشتكيت ؟ قال : نعم ، قال باسم الله أرقيك من كل شيء يوذيك من شر كل نفس أو عين حاسد ، الله يشفيك باسم الله أرقيك . قال الترمذي حديث حسن صحيح .

وروينا في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ دخل على أعرابي يعودده قال : وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل على من يعودده قال : لا بأس طهور إن شاء الله .

وروينا في كتاب ابن السني عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على أعرابي يعودده وهو محموم فقال : كفارة وطهور .

وروينا في كتاب الترمذي وابن السني عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده على جبهته أو على يده فيسأله كيف هو ؟ هذا لفظ الترمذي . وقال الترمذي : ليس إسناده بذلك . وفي رواية ابن السني : من تمام العيادة أن تضع يدك على المريض فتقول : كيف أصبحت أو كيف أمسيت .

وروينا في كتاب ابن السني عن سلمان رضي الله عنه قال : عادي رسول الله ﷺ وأنا مريض فقال ياسلمان ! شفى الله سقمك وغفر لك ذنبك وعافاك في دينك وجسمك إلى مدة أجلك .

وروينا فيه عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : مرضت فكان رسول الله ﷺ يعوذني فعوذني يوماً فقال : بسم الله الرحمن الرحيم أعيدك بالله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد من شر ما تجد ، فلما استقل رسول الله ﷺ قائماً قال : ياعثان تعوذ بها فما تعوذتم بمثلها انتهى ما ذكره النووي في الأذكار بحذف .

الفصل الثالث

في تخفيف الجلوس وقلة الصخب عند المريض

عن ابن عباس قال : لما اشتد بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعه قال :
اثنوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لاتضلوا بعده ، قال عمر : إن النبي صلى الله
عليه وسلم غلبه الوجع ، وعندنا كتاب الله حسبنا ، فاختلفوا وكثر اللغَطُ -
أى الصوت والجلبة - قال : قوموا عني ، ولا ينبغي عندي التنازع ، فخرج
ابن عباس يقول : إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه
وسلم وبين كتابه . رواد البخاري في «باب كتابة العلم» و «باب مرض النبي
صلى الله عليه وسلم ووفاته» وفي «كتاب المرضى» «باب قول المريض
قوموا عني» .

قال الشيخ المحدث أحمد على السهارنفوري في حاشيته على صحيح
البخاري : ويؤخذ من هذا الحديث أن الأدب في العيادة أن لا يطيل العائد
عند المريض حتى يضجره ، وأن لا يتكلم عنده بما يزعجه ، ومن جملة آداب
العيادة أن لا يحضر في وقت يكون غير لائق كوقت شرب المريض الدواء وأن
يغض البصر ويقلل السؤال وأن يظهر الرقة وأن يخلص الدعاء وأن يوسع
للمريض في الأمل ويشير عليه بالصبر ويحذر من الجزع . انتهى .

قوله «قوموا عني» قال في المرقاة : قال الطيبي وكان ذلك عند وفاته -
صلى الله عليه وسلم .

روى ابن عباس أنه لما احتضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي البيت
رجال فيهم عمر بن الخطاب ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : هلموا أكتب

لكم كتاباً لن تضلوا بعده ، فقال عمر وفي رواية : فقال بعضهم : رسول الله قد غلب عليه الوجد وعندكم القرآن حسبكم كتاب الله فاختلف أهل البيت واختصموا فمنهم من يقول : قريوا يكتب لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم من يقول غير ذلك ، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله ﷺ : قوموا عني . متفق عليه .

قال الحافظ في الفتح : ودل أمره صلى الله عليه وسلم «قوموا عني» على أن أمره الأول كان على الاختيار أى دون الوجوب ، ولهذا عاش صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أياماً ولم يعاود أمرهم بذلك ، ولو كان واجباً لم يتركه لاختلافهم لأنه لم يترك التبليغ لمخالفة من خالف ، وقد عدّ هذا من موافقة عمر رضي الله عنه .

واختلف في المراد بالكتاب فقيل : كان أراد أن يكتب كتاباً ينص فيه على الأحكام ليرتفع الاختلاف ، وقيل : بل أراد أن يكتب كتاباً ينص على أسامي الخلفاء بعده حتى لا يقع بينهم الاختلاف قاله سفيان بن عيينة ويؤيده مارواه مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال في أوائل مرضه وهو عند عائشة : «ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل ويأبى الله والمؤمنون إلا أبابكر» . انتهى ما ذكره الحافظ في الفتح .

وعن أنس - رضي الله عنه - قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : العيادة فواق ناقة . كما في المشكاة «باب عيادة المريض الخ» .

وفي رواية سعيد بن المسيب مرسلًا : أفضل العيادة سرعة القيام . رواه البيهقي في شعب الإيمان كما في المشكاة «باب عيادة المريض الخ» .

وقد أخرجهما ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» قاله الألباني حفظه الله

قوله «فواق ناقة» قال في المرقاة : بفتح الفاء وضمها وبالرفع وفي نسخة بالنصب خبر المبتدأ أى أفضل زمان العيادة مقدار فواقها ، وهو قدر ما بين الحلبتين لأنها تحلب تم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتدر ثم تحلب يقال ما أقام عنده إلا فواقاً . انتهى

قوله «أفضل العيادة سرعة القيام» قال في المرقاة : قال الطيبي : أى أفضل ما يفعله العائد في العيادة أن يقوم سريعاً .

قال ميرك : والأظهر أن يقال : أفضل العيادة عيادة فيها سرعة القيام .
وفي شرح الشريعة قيل : نعم العادة التخفيف في العيادة ، وقيل : العيادة لحظة ولفظة .

وعن بعضهم أنه قال : عدنا السرى السقطى في مرض موته فأطلنا الجلوس عنده ، وكان به وجع بطن ، ثم قلنا له : أدع لنا حتى نخرج من عندك ، فقال اللهم علمهم كيف يعودون المرضى .

وروى أنه دخل رجل على مريض فأطال الجلوس ، فقال المريض : لقد تأذينا من كثرة من يدخل علينا ، فقال الرجل : أقوم وأغلق الباب ؟ قال : نعم . ولكن من خارج .

وبعضهم لم يكتف بإمثال هذه الكنايات بل سلك طريق التصريح حيث روى أنه دخل ثقیل على مريض فأطال الجلوس ، ثم قال : ماتشتكى ؟ قال : قعودك عندي .

وروى أنه دخل قوم على مريض فأطالوا القعود ، وقالوا : أوصنا ، فقال : أوصيكم أن لا تطيلوا الجلوس إذا عدتم مريضاً .

هذا ويستثنى منه ما إذا ظن أن المريض يؤثر التطويل لنحو صداقة أو تبرك أو قيام بما يصلحه ونحو ذلك . انتهى .

قال الراقم : ههنا قصة لا بد من ذكرها وهو أن رجلاً أصمَّ ذهب إلى صديقه المريض ليعوده ، وتفكر في الطريق بأنه لا يقدر أن يسمع كلام صديقه المريض الضعيف فعلى أن أرْتب الكلام الذي أقوله أولاً وإذا ردَّ المريض فماذا يقول في جوابه ؟

فقال : أسأله أولاً كيف حالك ؟ فيجيب المريض : الحمد لله أنا في انتقاص من المرض ، فأقول : بارك الله ويرحمك الله .

ثانياً أسأله من يعالجك ؟ فيقول المريض : يعالجنى الطبيب الفلاني ، فأقول : ماشاء الله هو طبيب ماهر ينبغي أن يؤخذ منه العلاج وهو شفيق على المرضى . ثالثاً أقول : أيّ دواء تستعمل ؟ فيسمى دواء ما ، فأقول : ماشاء الله هو أحسن دواء لك ، بارك الله فيه هنيئاً مريئاً في جسدك .

فدخل الأَصم على المريض ، فلما رأى المريضُ صورة صديقه الأَصم فزع وسم فقال في نفسه : ويحك من أين ورد هذا العبد مع الكريات ؟ يتعبنى بكلام نفسه ولا يسمع كلامي قط ويقول ما يريد .

فقال الأَصم : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته كيف حالك يا أخي الحبيب ؟ فأجاب المريض وهو غضبان : أنا في سياق الموت ، فظن الأَصم أنه قال أنا في إنتقاص من المرض ، فقال الأَصم على زعمه : بارك الله ، اللهم زد فزد . ثم سأله من يعالجك ؟ قال المريض وهو أكثر سخطاً مما سمع هذا الكلام والدعا عليه : يعالجنى ملك الموت عليه السلام ، فقال الأَصم : هو طبيب ماهر ينبغي أن يؤخذ منه العلاج وهو شفيق على المرضى .

ثم سأله أيّ دواء تستعمل يا أخي ؟ فقال المريض : أنا أشرب السم ، فقال الأَصم : ماشاء الله هو أحسن دواء لك ، بارك الله فيه هنيئاً مريئاً في جسدك .

فكما أن هذا الأَصْم كان مسروراً بعبادة صديقه مع أنه آذى المريض وجعله في حزن وغمّ ، كذلك بعض الناس يعودون المرضى بطريقة يحسبونها أنهم يحسنون صنعاً ، ولكن لا يشعرون هل أراحوا المريض بعبادتهم أم آذوه . وقد ثبت في الصحيح للإمام البخاري عن أبي التياح قال : سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه يقول قال النبي ﷺ : يَسْرُوا ولا تَعْسَرُوا ، وسكّنُوا ولا تنفروا .

وعن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده لما بعثه رسول الله ﷺ ومعاذ ابن جبل ، قال : لهما يسراً ولا تعسراً وبشراً ولا تنفراً وتطوعاً - أى توافقاً في الأمور - قال أبو موسى يارسول الله إنا بأرض يُصنع فيها شراب من العسل يقال له البتّع ، وشراب من الشعير يقال له الجِزر ، فقال رسول الله ﷺ كل مسكر حرام . رواهما البخاري رحمه الله في صحيحه «باب قول النبي صلى الله عليه وسلم يسرّوا ولا تعسروا وكان يجب التخفيف واليسر على الناس» قال الراقم : ورد هذا الحديث في اليسر والتخفيف على الناس مطلقاً والمريض أحقّ بذلك من الصحيح فافهم .

ويستحب تطيب نفس المريض عند العيادة كما في كتاب الترمذي وابن ماجه بإسناد ضعيف عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا دخلتم على مريض فنفسوا له في أجله ، فإن ذلك لا يرد شيئاً ويطيب نفسه . ويؤخذ هذا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما السابق في باب ما يقال للمريض : لا بأس طهور إن شاء الله .

قوله : «نفسوا له في أجله» قال في المرقاة : أى أذهبوا حزنه فيما يتعلق بأجله بأن تقولوا : لا بأس طهور أو يطول الله عمرك ويشفيك ويعافيك

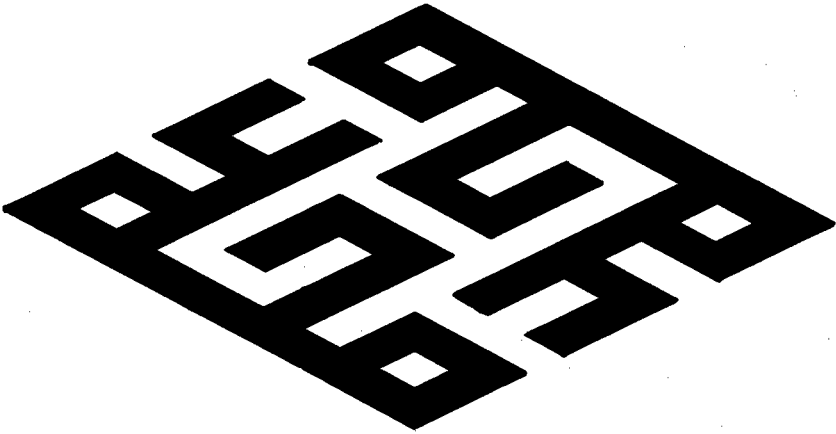
أو وسعوا له في أجله فينفس عنه الكرب ، والتنفيس التفرج .
وقال الطيبي : أى طمعوه في طول عمره .

قيل لهارون الرشيد وهو عليل : هون عليك وطيب نفسك فإن الصحة
لا تمنع من الفناء ، والعلة لا تمنع من البقاء ، فقال : والله لقد طيبت نفسي
وروحت قلبي .

قيل يستحب للمريض الاستياك إذا قرب نزعه وحديثه في الصحيحين عند
موته صلى الله عليه وسلم .

وقيل : إنه يسهل نزع الروح وكذا التطيب لأجل الملائكة وجاء فعله عن
سلمان عند موته - كما سنذكر قصته هذه إن شاء الله - وكذا لبس الثياب
النظيفة ، وجاء عن فاطمة وأبي سعيد الخدري ، وكذا الصلاة لقصة خبيب
وكذا الاغتسال ، وجاء عن فاطمة رضي الله عنهم أجمعين . انتهى ما ذكره
صاحب المرقاة تحت الحديث المذكور .

صلى الله
عليه وسلم



الفصل الرابع

في الثناء على المريض بمحاسن أعماله ونحوها إذا رأى منه خوفاً
ليذهب خوفه ويحسن ظنه بربه سبحانه وتعالى

أخرج ابن سعد ٤ / ٢٥٨ عن ابن شماس المَهْرِيِّ قال : حضرنا عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو في سياقة الموت فحوّل وجهه إلى الحائط يبكي طويلاً وابنه يقول له : مايبيك ؟ أما بشرك رسول الله ﷺ ؟ بكذا أما بشرك بكذا ؟ - قال : وهو في ذلك يبكي ووجهه إلى الحائط - قال : ثم أقبل بوجهه إلينا فقال : إن أفضل ماتعد عليّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ ولكني قد كنت على أطباق ثلاث - أي أحوال ثلاث - : قد رأيتني ما من الناس من أحد أبغض إليّ من رسول الله ﷺ ولا أحب إليّ من أن أستمكن منه فأقتله ، فلو مت على تلك الطبقة فكنت من أهل النار ، ثم جعل الله الإسلام في قلبي فأتيت رسول الله ﷺ لآبائعه فقلت : أبسط يمينك أبايعك يا رسول الله ، قال : فبسط يده ثم إني قبضت يدي فقال : «مالك يا عمرو ؟» قال : فقلت : أردت أن أشتري ، فقال : «تشتري ماذا ؟» فقلت : أشتري أن يُغفر لي ، فقال : «أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله» ، فقد رأيتني ما من الناس أحد أحب إليّ من رسول الله ﷺ ولا أجمل في عيني منه ، ولو سئلت أن أنعته ما أطقت لأني لم أكن أطيق أن أملأ عيني إجلالاً له ، فلو متُّ على تلك الطبقة رجوتُ أن أكون من أهل الجنة ، ثم ولينا أشياء بعد فلست أدري ما أنا فيها أو ما حالي فيها ، فإذا أنا متُّ فلا تصحبني نائحة ولا نار ، فإذا دفنتموني فسئوا عليّ التراب سناً - أي

ضعود وضعاً سهلاً - ، فإذا فرغتم من قبري فامكثوا عند قبري قدر ما ينحر
جزور ويقسم لحمها ، فإني أستأنس بكم حتى أعلم ماذا أراجع به رسل ربي .
وأخرجه مسلم بسند ابن سعد بسياقه نحو .

وأخرج أحمد عن عبدالرحمن بن شماسه قال : لما حضرت عمرو بن العاص
الوفاة ، بكى فقال له ابنه عبدالله : لم تبكي ؟ أجزعاً على الموت ؟ فقال : لا
والله ولكن مما بعد الموت ! فقال له : قد كنت على خير ، فجعل يذكره صحبة
رسول الله - ﷺ - وفتوحه الشام فقال عمرو : تركتُ أفضل من ذلك
كله شهادة أن لا إله إلا الله ، فذكر مختصراً وزاد في آخره : فإذا مت فلا
تبكين عليّ باكية ولا يتبعني ماح ولا نار ، وشدّوا عليّ إزارى ، فإني مخاصم ،
وشنّوا عليّ التراب شنّاً ، فإن جنبي الأيمن ليس أحق بالتراب من جنبي الأيسر
ولا تجعلنّ في قبري خشبة ولا حجراً . كما في البداية ٢٦/ ٨ وقال : وقد روى
مسلم هذا الحديث في صحيحه وفيه زيادات على هذا السياق أى سياق أحمد
وأخرج ابن عساكر عن أبي مطر قال : سمعت علياً رضي الله عنه يقول :
دخلت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين وجأه أبو لؤلؤة وهو يبكي
فقلت : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أبكاني خبر السماء ، أيذهب بي إلى
الجنة أم إلى النار؟ فقلت له : أبشر بالجنة ، فإني سمعت رسول الله ﷺ
يقول ما لا أحصيه يقول : «سيدا كهول الجنة أبوبكر وعمر وأنعمًا» - أى زاداً
وفضلاً - فقال : أشاهد أنت لي يا علي بالجنة ؟ قلت : نعم ، وأنت يا حسن
فاشهد على أبيك أن رسول الله ﷺ قال : «إن عمر من أهل الجنة» كما في
المنتخب ٤ / ٤٣٨ .

وأخرج ابن سعد ج ٣ ص ٩ عن عبدالله بن شداد رضي الله عنه يقول :
دخل رسول الله ﷺ على سعد بن معاذ رضي الله عنه - وهو يكيّد بنفسه
- أي يجود بنفسه - فقال : جزاك الله خيراً من سيد قوم ! فقد أنجرت الله
ما وعدته ولئنجزتكَ الله ما وعدك . قال الهيثمي ج ١٠ ص ٤ رجاله رجال الصحيح .
وأخرج الطبراني في الكبير عن سلمان رضي الله عنه قال : دخل عليّ
رسول الله ﷺ يعودني ، فلما أراد أن يخرج قال : يا سلمان كشف الله
ضرك ، وغفر ذنبك ، وعافاك في دينك وجسدك إلى أجلك . وفيه عمرو بن
خالد القرشي وهو ضعيف ، كما قال الهيثمي ٢٩٩/ ٢ .

قال النووي في الأذكار في «باب الشاء على المريض الخ» :

روينا في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لعمر بن
الخطاب رضي الله عنه حين طعن وكأنه يجزعه : يا أمير المؤمنين ! ولا كل ذلك
قد صحبت رسول الله ﷺ فأحسنت صحبتته ، ثم فارقك وهو عنك راض
ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبتته ثم فارقك وهو عنك راض ، ثم صحبت
المسلمين فأحسنت صحبتهم ، ولكن فارقهم لتفارقهم وهم عنك راضون ، وذكر
تمام الحديث ، وقال عمر رضي الله عنه : ذلك من من الله تعالى .

وروي في صحيح البخاري عن القاسم بن محمد بن أبي بكر رضي الله عنهم
أن عائشة رضي الله عنها اشتكت فجاء ابن عباس رضي الله عنهما فقال يأأم
المؤمنين تقدمين على فرط صدق رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه
ورواه البخاري أيضا من رواية ابن أبي مليكة أن ابن عباس استأذن
على عائشة قبل موتها وهي مغلوبة ، قالت : أخشى أن يثنى عليّ ، فقيل ابن
عم رسول الله ﷺ من وجوه المسلمين ، قالت : ائذنوا له ، قال :

كيف تجدينك؟ قالت بخير إن اتقيت ، قال : فأنت بخير إن شاء الله زوجة رسول الله ﷺ ولم ينكح بكرة غيرك ونزل عذرك من السماء انتهى ما ذكره النووي رحمه الله تعالى .

وقد ورد الشرع في حسن الظن بالله تعالى عند الموت كما في رواية لمسلم وأبي داود في سننه واللفظ له «باب ما يستحب من حسن الظن بالله عند الموت» وسرد الحديث كما يلي :

حدثنا مسدد نا عيسى بن يونس نا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبدالله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل موته بثلاث قال : لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله . انتهى .

قوله «وهو يحسن الظن بالله» قال صاحب التعليق المحمود على سنن أبي داود» : بأنه يعفو ويغفر أنه هو الغفور الرحيم ، وهو حث على الرجاء عند الخاتمة وزاد ابن أبي الدنيا في حسن الظن : فإن قوماً قد أرداهم سوء ظنهم بالله ، فقال في حقهم «وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين» .

قال الخطابي : إنما يحسن الظن بالله من حسن عمله ، فكأنه قال : حسنوا أعمالكم ليحسن ظنكم بالله ، فمن ساء عمله ساء ظنه ، وقد يكون أيضا حسن الظن بالله من ناحية الرجاء وتأميل العفو .

وقال الرافعي في تاريخ قزوين : يجوز أن يراد به الترغيب في التوبة والخروج من المظالم ، فإنه إذا فعل ذلك حسن ظنه رجاء الرحمة .

وقال النووي في شرح المهذب : معنى تحسين الظن بالله تعالى أن يظن أن الله تعالى يرحمه ويرجو ذلك ويتدبر الآيات والأحاديث الواردة في

في كرم الله تعالى وعفوه ورحمته وما وعد به أهل التوحيد - وسنين إن شاء الله تعالى هذه الآيات والأحاديث في «باب التوبة والاستغفار» - وما سيبيده لهم من الرحمة يوم القيامة كما قال سبحانه وتعالى في الحديث القدسي «أنا عند ظن عبدي بي» وهذا هو الصواب في معنى الحديث ، وهو الذي قاله جمهور العلماء ، وشدد الخطابي في ذلك فذكر تأويلاً آخر أن معناه : أحسنوا أعمالكم حتى يحسن ظنكم بربكم فمن حسن عمله حسن ظنه ، ومن ساء عمله ساء ظنه ، وهذا تأويل باطل ، نهت عليه لئلا يغتر به . انتهى .

قال الحافظ ابن كثير ٤ / ٩٨ مفسراً لقوله تعالى : ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم﴾ الآية .

قال معمر : وتلا الحسن ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم﴾ ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى : أنا مع عبدي عند ظنه بي وأنا معه إذا دعاني ، ثم افتر الحسن ينظر في هذا فقال : ألا إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم ، فأما المؤمن فأحسن الظن بربه فأحسن العمل ، وأما الكافر والمنافق فأساء الظن بالله فأساء العمل ، ثم قال : قال الله تبارك وتعالى ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم - إلى قوله - وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم﴾ الآية . انتهى .

وقال في الدر المنثور ٥ / ٣٦٢ : أخرج أحمد والطبراني وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود وابن ماجه وابن حبان وابن مردويه عن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله فإن قوماً قد أرداهم سوء ظنهم بالله عزوجل قال الله عزوجل : ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾ انتهى .

وقال قتادة : الظن نوعان ظن منج وظن مرد ، فالمنج قوله تعالى ﴿إني ظننت أنني ملائح حسابية﴾ وقوله ﴿الذين يظنون أنهم ملائحوا ربهم﴾ وأما الظن المردى فهو قوله ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم﴾ كما في التفسير الكبير للرازي ١٤ / ١٨٨ .

الفصل الخامس

في ما يقول من آيس من حياته

هكذا بوب النوروى رحمه الله في كتابه الأذكار ثم قال : روينا في كتاب الترمذي وسنن ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت : رأيت رسول الله ﷺ وهو بالموت وعنده قدح فيه ماء وهو يدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول : اللهم أعنى على غمرات الموت وسكرات الموت .

وروينا في صحيحى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت سمعت النبي ﷺ وهو مستند إليّ يقول : اللهم اغفر لي وارحمنى والحقنى بالرفيق الأعلى .

ويستحب أن يكثر من القرآن والأذكار ، ويكره له الجزع وسوء الخلق والشتم والمخاصمة والمنازعة في غير الأمور الدينية . ويستحب أن يكون شاكراً لله تعالى بقلبه ولسانه ، ويستحضر في ذهنه أن هذا آخر أوقاته من الدنيا ، فيجتهد على ختمها بخير ويبادر إلى أداء الحقوق إلى أهلها من رد المظالم والودائع والعواري واستحلال أهله من زوجته ووالديه وأولاده وغلمانه وجيرانه وأصدقائه وكل من كانت بينه وبينه معاملة أو مصاحبة أو تعلق في شيء ، وينبغى أن يوصى بأمور أولاده إن لم يكن لهم جد يصلح للولاية ، ويوصى بما لا يتمكن من فعله في الحال من قضاء بعض الديون ونحو ذلك وأن يكون حسن الظن بالله سبحانه وتعالى أنه يرحمه ، ويستحضر في ذهنه أنه حقير في مخلوقات الله تعالى وأن الله تعالى غنى عن عذابه وعن طاعته ، وأنه عبده ، ولا يطلب العفو والاحسان والصفح والامتنان إلا منه ، ويستحب أن يكون متعاهداً نفسه بقراءة آيات من القرآن العزيز في الرجاء وبقراءتها بصوت رقيق أو يقرأها له غيره

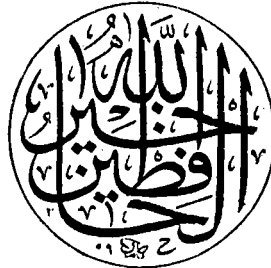
وهو يستمع ، وكذلك يستقريء أحاديث الرجاء وحكايات الصالحين وآثارهم عند الموت ، وأن يكون خيره متزايدا ويحافظ على الصلوات واجتناب النجاسات وغير ذلك من وظائف الدين ويصبر على مشقة ذلك وليحذر من التساهل في ذلك ، فإن من أقبح القبائح أن يكون آخر عهده من الدنيا التي هي مزرعة الآخرة التفريط فيما وجب عليه أو ندب إليه ، وينبغي له أن لا يقبل قول من يخذله عن شيء مما ذكرناه فإن هذا مما يتلى به وفاعل ذلك هو الصديق الجاهل العدو الخفي فلا يقبل تحذيله وليجتهد في ختم عمره بأكمل الأحوال ويستحب أن يوصى أهله وأصحابه بالصبر عليه في مرضه واحتمال ما يصدر منه ويوصيهم أيضا بالصبر على مصيبتهم به ، ويجتهد في وصيتهم بترك البكاء عليه ويقول لهم : صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، فإياكم يا أحبائي والسعي في أسباب عذابي ، ويوصيهم بالرفق بمن يخلفه من طفل وغلام وجارية ونحوهم ، ويوصيهم بالاحسان إلى أصدقائه ويعلمهم أنه صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه ، وصح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكرم صواحبات خديجة رضي الله عنها بعد وفاتها ، ويستحب له استحبابا متأكدا أن يوصيهم باجتنب ما جرت العادة به من البدع في الجنائز ، ويؤكد العهد بذلك ، ويوصيهم بتعاهده بالدعاء وأن لا ينسوه لطول الأمد ، ويستحب له أن يقول لهم في وقت بعد وقت متى رأيتم منى تقصيرا في شيء تهوني عليه برفق وأدوا إلى النصيحة في ذلك فإني معرض للغفلة والكسل والاهمال ، فإذا قصرت فنشطوني وعاونوني على أهبة سفري ، هذا البعيد ودلائل مذكرته في هذا الباب معروفة مشهورة حذفها اختصاراً فإنها تحتمل كراريس ، وإذا حضره النزاع فليكثر من قول : لا إله إلا الله ، ليكون آخر كلامه .

فقد روينا في الحديث المشهور في سنن أبي داود وغيره عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة ، قال الحاكم أبو عبدالله في كتابه المستدرک علی الصحیح : هذا حديث صحيح الإسناد .

وروينا في صحيح مسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وغيرها عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : لقنوا موتاكم لا إله إلا الله ، قال الترمذي حديث حسن صحيح .

وروينا في صحيح مسلم أيضا من رواية أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ . قال العلماء : فإن لم يقل هو لا إله إلا الله لقنه من حضره ويلقنه برفق مخافة من أن يضجر فيردها ، وإذا قالها مرة لا يعيدها عليه إلا أن يتكلم بكلام آخر . قال أصحابنا ويستحب أن يكون الملقن غير متهم لتلا يخرج الميت ويتهمه .

واعلم أن جماعة من أصحابنا قالوا : نلقن ونقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، واقتصر الجمهور على قول لا إله إلا الله وقد بسطت ذلك بدلائله ، وبيان قائله في كتاب الجنائز من شرح المهذب . انتهى ما قاله النووي في الأذكار رحمه الله .



الباب السادس
في كتابة الوصية

الفصل الأول

استحباب كتابة الوصية

أورد البخاري في صحيحه : «كتاب الوصايا» وقال : قال الله عزوجل :
﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين - إلى -
جنفاً﴾ - ثم سرد الحديث كما يلي - :

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ما حق
امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده .
وعن طلحة بن مصرف قال سألت عبدالله بن أبي أوفى هل كان النبي
ﷺ أوصى ؟ فقال : لا ، فقلت : كيف كُتِبَ على الناس الوصية ؟ أو
أمروا بالوصية ؟ قال : أوصى بكتاب الله . المصدر السابق .

قال الراقم : والحديث الأول أورده أبو داود في سننه أيضاً في «باب ماجاء
فيما يأمر به من الوصية» . انتهى .

وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما راوى الحديث الأول : «مامرت عليّ
ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك ، إلا وعندي وصيتي» . وذلك
من حرصه وكثرة ذكره واستعداده للموت رضي الله عنه .

قال في التعليق المحمود على سنن أبي داود شارحاً للحديث الأول : يعني
لا ينبغي له أن يمضي عليه زمان وإن كان قليلاً إلا ووصيته مكتوبة عنده ، فيه
حث على الوصية .

ومذهب الجمهور أنها مندوبة ، وقال الشافعي : ما الحزم والاحتياط لمسلم إلا
أن يكون وصيته مكتوبة عنده ، وقال داود وغيره من أهل الظاهر : هي واجبة
لهذا الحديث ، ولا دلالة لهم فيه على الوجوب لكن إن كان على الإنسان دين
أو ودیعة لزمه الايضاء بذلك ويستحب تعجيلها وإن يكتبها في صحيفة

ويشهد عليه فيها وإن تجدد له أمر يحتاج إلى الوصية به ألحقها بها كذا
قاله الطيبي .

قال النووي رحمه الله قالوا : ولا يكلف أن يكتب كل يوم محقرات
المعاملات وجزئيات الأمور المتكررة ، وأما قوله صلى الله عليه وسلم : «ووصيته
مكتوبة عنده» فمعناه مكتوبة وقد أشهد عليه بها لا أنه يقتصر على الكتابة بل
لا يعمل بها ولا ينفذ إلا إذا كان أشهد عليه بها، هذا مذهبنا ومذهب الجمهور،
وقال محمد بن نصر المروزي من أصحابنا : يكفي الكتاب من غير إظهار
لظاهر الحديث والله أعلم . انتهى مقاله النووي رحمه الله .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن
الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرها الموت فيضاران في
الوصية فتجب لهما النار ، قال : وقرأ عليّ أبوهريرة من ههنا ﴿من بعد وصية
يوصى بها أو دين غير مضار - حتى بلغ - ذلك الفوز العظيم﴾ رواه أبو داود
في سننه «باب كراهية الإضرار في الوصيات» ورواه النسائي أيضا كما في جمع
الفوائد «كتاب الوصية» .

وعن أنس رضي الله عنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم مات فلان ! قال :
أليس كان معنا آنفاً؟ قالوا : بلى ، قال : سبحان الله ، كأنها أخذت غضب ،
المحروم من حرم وصيته . للموصلي كما في جمع الفوائد «كتاب الوصية» .

يجب على من أراد أن يوصى بشيء من ماله ألا يزيد على الثلث لما رواه
سعد بن مالك رضي الله عنه قال : جاءني النبي صلى الله عليه وسلم ﴿يعودني﴾ ، فقلت :
يارسول الله ! أوصى بمالي كله؟ قال : لا ، قلت : فالشَّطْر قال : لا قلت :
والثلث؟ قال : الثلث ، والثلث كثير ، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من

أن تدعهم عالة - فقراء - يتكفون الناس بأيديهم - أى يسألون الناس -
رواه البخاري ومسلم رحمهما الله .

قال العيني في عمدة القاري : إن أهل العلم لا يرون أن يوصى الرجل بأكثر من الثلث ويستحبون أن ينقص من الثلث ، وقال الثوري : كانوا يستحبون في الوصية الخمس بعد الربع والربع دون الثلث ، فمن أوصى فلم يترك شيئاً فلا يجوز له إلا الثلث ، وأجمع علماء المسلمين على أنه لا يجوز لأحد أن يوصى بأكثر من ثلثه إذا ترك ورثة من بنين وعصبة ، واختلفوا إذا لم يتركهما ولا وارثاً بنسب أو نكاح ، فقال ابن مسعود : إذا كان كذلك جاز له أن يوصى بماله كله ، وعن أبي موسى مثله ، وقال بقولهما قوم منهم مسروق وعبيدة وإسحاق ، واختلف في ذلك قول أحمد وذهب إليه جماعة من المتأخرين ممن لا يقول بقول زيد بن ثابت في هذه المسألة ، وعن عبيدة : إذا مات الرجل وليس عليه عقد لأحد ولا عصبة ترثه فإنه يوصى بماله كله حيث شاء ، وعن مسروق وشريك مثله وعن الحسن وابن العالية مثله ذكره في المصنف ، قال القرطبي وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه وأحمد وإسحاق ومالك في أحد قوليهما ، وقال زيد بن ثابت لا يجوز لأحد أن يوصى بأكثر من ثلثه إذا كان له بنون أو ورثة كلاله أو ورث جماعة المسلمين لأن بيت مالهم عصبة من لا عصبة له وإليه ذهب جماعة ، واجمع فقهاء الأمصار : أن الوصية بأكثر من الثلث إذا أجازها الورثة جازت وإن لم تجزها الورثة لم يجز منها إلا الثلث . انتهى ما ذكره العيني رحمه الله في عمدة القاري .

الفصل الثاني

ما ينبغي أن تتضمنه الوصية

قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آباءك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾ البقرة : ۱۳۳ .

قال الحافظ ابن كثير مفسراً لهذه الآية ۱ / ۱۸۷ : أن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له فقال لهم : ﴿ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آباءك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً﴾ أى نوحده بالألوهية ولا نشرك به شيئاً غيره ﴿ونحن له مسلمون﴾ أى مطيعون خاضعون كما قال تعالى : ﴿وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً أو كرهاً وإليه يرجعون﴾ انتهى بحذف .

وقال صاحب التفسير المظهرى في قوله تعالى المذكور : ﴿إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ؟﴾ أى أى شيء تعبدونه ، أراد به تقريرهم على التوحيد والإسلام وأخذ ميثاقهم .

قال عطاء : إن الله تعالى لم يقبض نبياً حتى خيره بين الموت والحياة فلما خير يعقوب قال : أنظرني حتى أسئل ولدي وأوصيهم ففعل ذلك فجمع ولده وولد ولده وقال لهم : قد حضر أجلي فما تعبدون بعدي ؟ ﴿قالوا نعبد إلهك وإله آباءك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾ . انتهى بحذف ۱ / ۱۳۴ .

وصية نبينا ﷺ حين حضره الوفاة

أخرج البيهقي عن أنس رضي الله عنه قال : كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الوفاة «الصلاة وما ملكت أيمانكم» حتى يغرغر بها - أى بلغه روحه حلقومه - وما يفصح بها لسانه . وقد رواه النسائي وابن ماجه . وعند أحمد من حديثه قال : كانت عامة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حضره الموت : «الصلاة وما ملكت أيمانكم» حتى جعل رسول الله ﷺ يغرغر بها صدره وما يكاد يفيض بها لسانه .

ومن حديث علي رضي الله عنه قال : أمرني رسول الله ﷺ أن آتية بطبق يكتب فيه ما لا تفضل أمته من بعده ، قال : فخشيت أن تفوتني نفسه قال : قلت : إني أحفظ وأعي ، قال : «أوصي بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم» ، كذا في البداية ٥ / ٢٣٨ . وأخرجه أيضاً ابن سعد (٢ / ٢٤٣) عن أنس مثله . وأخرج أيضاً عن علي رضي الله عنه نحوه وزاد : فجعل يوصي بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم ، قال : كذلك حتى فاضت نفسه ، وأمر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله حتى فاضت نفسه ، «من شهد بهما حُرِّم على النار» .

وعند أحمد والبخاري في الأدب وأبي داود وابن ماجه وابن جرير - وصححه - وأبي يعلى والبيهقي عن علي قال : كان آخر كلام النبي ﷺ : «الصلاة الصلاة واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم» كذا في الكنز ٤ / ١٨٠ . وأخرج ابن سعد ٢ / ٣١٢ عن العلاء رضي الله عنه أن النبي ﷺ لما حضرته الوفاة بكت فاطمة عليها السلام فقال لها النبي ﷺ : لا تبكي يابنية ! قولي إذا ماتت : «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» ، فإن لكل إنسان بها من كل مصيبة معوضة ، قالت : ومنك يارسول الله ؟ قال : ومني .

وعند ابن سعد ٣ / ١٩٦ عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما حضر
أبأبكر الوفاة استخلف عمر فدخل عليه عليّ وطلحة - رضي الله عنهم -
فقالا : من استخلفت ؟ قال : عمر . قالا : فماذا أنت قائل لربك ؟ قال :
أبالله تُفرقاني ، لأننا أعلم بالله وبعمر منكما ، أقول : استخلفتُ عليهم خير
أهلك . كما في الكنز ٣ / ١٤٦ . وأخرجه البيهقي ٨ / ١٤٩ بنحوه عن عائشة
رضي الله عنها ، وابن جرير ٤ / ٥٤ بمعناه عن أسماء بنت عُميس رضي الله عنها .
وسمع بعض أصحاب النبي ﷺ بدخول عبدالرحمن وعثمان على أبي بكر
- رضي الله عنهم - وخالوتهما به فدخلوا على أبي بكر فقال له قائل منهم :
مأنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر لعمر^(١) علينا وقد ترى
غِلظتَه ؟ فقال أبوبكر : أجلسوني ، أبالله تخوفوني ، خاب من تزود من أمركم
بظلم أقول : اللهم استخلفت عليهم خير أهلك ، أبلغ عني ماقلت لك من
وراءك ثم اضطجع ودعا عثمان بن عفان ، فقال : اكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ماعهد أبوبكر بن أبي قحافة في آخر عهده من
الدنيا خارجا منها ، وعند أول عهده بالآخرة داخلا
فيها حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب
إني أستخلف عليكم بعدي عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له
وأطيعوا وإني لم آل - لم أقصر - الله ورسوله ودينه
ونفسي وإياكم خيراً ، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي

(١) كذا في الأصل ، وفي الكنز ٣ / ١٤٥ بحذف لفظ «لعمر» .

فيه ، وإن بَدَّلَ لكل امرئ ما اكتسب (من الإثم) والخير
أردت ولا أعلم الغيب ﴿وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون﴾

- الشعراء : ٢٢٧ .

والسلام عليكم ورحمة الله !

ثم أمر بالكتاب فختمه ثم قال بعضهم :

الحديث كما في الكتر ٣ / ١٤٥

قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو على فراش الموت

أخرج أحمد في الزهد عن عبادة بن نسي قال : لما حضرت أبا بكر رضي
الله عنه الوفاة قال لعائشة رضي الله عنها : اغسلي ثوبي هذين وكفيني بهما ؛
فإنما أبوك أحد رجلين : إما مكسو أحسن الكسوة ، أو مسلوب أسوأ السلب
كذا في المنتحب ٤ / ٤٥٩ .

وعنده أيضاً وابن سعد والدغولي عن عائشة قالت : لما حضر أبو بكر قلت

لعمرك ما يغني الشراء عن الفتى

إذا حشرجت^(١) يوماً وضاق بها الصدر

فقال أبو بكر : لا تقولي هكذا يابنية ! ولكن قولي : ﴿وجاءت سكرة الموت
بالحق ذلك ما كنت منه تحيد^(٢)﴾ وقال : انظروا ثوبي هذين فاغسلوهما ثم
كفوني فيهما ، لأن الحي أحوج إلى الجديد من الميت ، إنما هو للمهلة .

(١) ترددت النفس عند الموت وغرغت . (٢) سورة ق : ١٩ .

وعند أبي يعلى وأبي نعيم والبيهقي عن عائشة قالت : لما اشتد مرض أبي بكر بكيت وأغمي عليه فقلت :

من لا يزال دمه مقنعا^(١)

فإنه من دمه مدفوق^(٢)

فأفاق فقال : ليس كما قلت يابنية ! ولكن «وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد» ثم قال : أي يوم توفي رسول الله ﷺ ؟ فقلت : يوم الاثنين ، فقال : أي يوم هذا ؟ فقلت : يوم الاثنين ، قال : فإني أرجو من الله ما بيني وبين هذا الليل ، فمات ليلة الثلاثاء ، وقال : في كم كفن رسول الله ﷺ ؟ فقلت : كفناه في ثلاثة أثواب سحولية بيض جُدد ليس فيها قميص ولا عمامة ، فقال : اغسلوا ثوبي هذا وبه رَدْع^(٣) من زعفران واجعلوا معه ثوبين جديدين ، فقلت إنه خلَق ، فقال : الحي أحوج إلى الجديد من الميت ، إنما هو للمهلة ، كذا في المنتخب ٤ / ٣٦٢ . وفي سياق ابن سعد ٣ / ١٩٧ : إنما يصير إلى الصيديد وإلى البلي .

وصية عمر رضي الله عنه وهو على فراش الموت

وأخرج ابن سعد ٣ / ٣٥٨ عن يحيى بن أبي راشد النصري^(٤) أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لما حضرته الوفاة قال لابنه : يابني إذا حضرته الوفاة فاحرفني واجعل ركبتك في صليبي وضع يدك اليمنى على جبينتي ويدك اليسرى على ذقني ، فإذا قبضت فأغمضني ، واقصدوا في كفني ، (فإنه إن يكن لي

(١) مغطّي في عروق دمه كامناً فيها . (٢) وفي النهاية : لا بد يوماً أنه يهراق . (٣) أي لطخ لم يعمّه كله . وفي الأضلل والمنتخب : ردغ . وهو تصحيف . (٤) وفي المنتخب البصري ولعله الصواب .

عندالله خير أبدلني خيراً منه ، وإن كنت على غير ذلك سلّبي فأسرع سلّبي واقصدوا في حفرتي) فإنه إن يكن لي عندالله خير وسّع لي فيها مد بصري وإن كنت على غير ذلك ضيقها عليّ حتى تختلف أضلاعي ، ولا تُخرجنّ معي امرأة ولا تزكوني بما ليس فيّ ، فإن الله هو أعلم بي ، وإذا خرجتم بي فأسرعوا في المشي ، فإنه إن يكن لي عندالله خير قدمتموني إلى ماهو خير لي ، وإن كنت على غير ذلك كنتم قد ألقيتم عن رقابكم شراً تحملونه . وأخرجه ابن أبي الدنيا في القبور عن يحيى نحوه كما في المنتخب ٤ / ٤٢٧ .

قول حذيفة رضي الله عنه وهو على فراش الموت

وأخرج البخاري في الأدب ص ٧٢ عن خالد بن الربيع قال : لما ثقل حذيفة رضي الله عنه سمع بذلك رهطه والأنصار فأتوه في جوف الليل أو عند الصبح فقال : أيّ ساعة هذه ؟ قلنا : جوف الليل أو عند الصبح ، فقال : أعوذ بالله من صباح (إلى) النار ! قال : جئتم بما أكفن به ؟ قلنا : نعم ، قال : لاتغالوا بالأكفان ، فإنه إن يكن لي عندالله خير بُدّلت به خيراً منه وإن كانت الأخرى سلّبت سلّبا سريعاً .

قول أبي موسى رضي الله عنه وهو يحتضر

وأخرج أبونعيم في الحلية ١ / ٢٦٢ عن الضحّاك بن عبدالرحمن قال : دعا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فتيانه حين حضرته الوفاة فقال : اذهبوا واحفروا وأوسعوا وأعمقوا فجاؤا فقالوا : قد حفرنا وأوسعنا وأعمقنا ، فقال : والله إنها لإحدى المنزلتين : إما ليوسعنّ عليّ قبري حتى تكون كل زاوية منه

أربعين ذراعاً ثم ليفتحنَّ لي باب إلى الجنة فلأنظرنَّ إلى أزواجي ومنازلي وما أعد الله تعالى لي من الكرامة ثم لأكوننَّ أهدى إلى منزلي مني اليوم إلى بيتي ثم ليصينني من ريحها وروحها حتى أبعث ، ولئن كانت الأخرى - ونعوذ بالله منها - ليضيقنَّ عليَّ قبري حتى يكون في أضيق من القناة في الزج - ثم ليفتحنَّ لي باب من أبواب جهنم فلأنظرنَّ إلى سلاسل وأغلال وقرنائي ثم لأكوننَّ إلى مقعدي من جهنم أهدى مني اليوم إلى بيتي ثم ليصينني من سمومها وحميمها حتى أبعث .

قوله القناة : الرمح ، والزج : الحديدة التي في أسفله .

طلب عبادة من أهله وجيرانه الاقتصاص منه

ووصيته حين حضره الموت

وأخرج البيهقي وابن عساكر عن عبادة بن محمد بن عبادة بن الصامت قال : لما حضرت عبادة رضي الله عنه الوفاة قال : أخرجوا إليَّ ماليَّ وخدمي وجيراني ومن كان يدخل عليَّ ، فجمعوا له فقال : إن يومي هذا لا أراه إلا آخر يوم يأتي عليَّ من الدنيا وأول ليلة من الآخرة وإني لا أدري لعله قد فرط مني إليكم بيدي أو بلساني شيء ، وهو والذي نفسي بيده القصاص يوم القيامة ، وأحرج إلي أحد منكم في نفسه شيء من ذلك إلا اقتصص مني من قبل أن تخرج نفسي ، فقالوا : بل كنت والداً وكنت مؤدباً - قال : وما قال لخدماء سوءاً قط - فقال : أعفوتهم ما كان من ذلك ؟ قالوا : نعم قال : : اللهم اشهد ؛ ثم قال : أمّا لا فاحفظوا وصيتي ، أحرج على إنسان منكم يبكي عليَّ ، فإذا خرجت نفسي فتوضأوا وأحسنوا الوضوء ثم ليدخل كل إنسان منكم مسجداً فيصلني ثم يستغفر لعبادة ولنفسه ، فإن الله تعالى قال

«استعينوا بالصبر والصلاة» أسرعوا بي إلى حفرتي ولا تُتبعُنِّي ناراً ولا تضعوا تحتي أرجواناً^(١) كما في الكنز ٧/ ٧٩ .

قول أبي ذر رضي الله عنه ووصيته حين حضره الموت

وعند ابن سعد ٤ / ٢٣ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لما نفى عثمان رضي الله عنه أبا ذر رضي الله عنه إلى الرَبْدَة وأصابه بها قدره ، ولم يكن معه إلا امرأته وغلّامه ، فأوصاهما أن اغسلاني وكفنايني وضعاني على قارعة الطريق - أي وسط الطريق أو أعلاه - ، فأول ركب يمر بكم فقولوا : هذا أبوذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه ، فلما مات فعلا ذلك به ثم وضعاه على قارعة الطريق ، وأقبل عبدالله بن مسعود في رهط من أهل العراق عمّاراً فلم يرَعهم إلا بالجنّازة على ظهر الطريق قد كادت الإبل أن تطأها ، فقام إليه الغلام فقال : هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه ، فاستهّل عبدالله يبكي ويقول : صدق رسول الله ﷺ : «تمشي وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك» ثم نزل هو وأصحابه فواروه ، ثم حدثهم عبدالله بن مسعود حديثه وما قال له رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك .

وأخرج ابن سعد أيضاً ٤ / ٢٣٣ عن إبراهيم بن الأشتر عن أبيه أنه لما حضر أباذر رضي الله عنه الموت بكّت امرأته ، فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : أبكى لأنه لا يدان لي - أي لا طاقة لي - بتغييبك وليس لي ثوب يسعك ،

(١) معرب من أرغوان وهو شجر له نور أحمر وكل لون يشبهه فهو أرجوان ، وقيل هو الصبغ

الأحمر الذي يقال له النشاستج . كما في هامش «حياة الصحابة» .

قال : فلا تبكي ، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول لنفر أنا فيهم : «يموتن منكم رجل بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين» وليس من أولئك نفر رجل إلا قد مات في قرية وجماعة من المسلمين وأنا الذي أموت بفلاة ، والله ما كذبت ولا كُذبتُ - أى لم يكذبني النبي ﷺ - فأبصري الطريق ! الخ الحديث . وأخرجه أبو نعيم عن أم ذر نحوه ، كما في المنتخب ١٥٧/ ٥ .
وأخرج الفضائي الرازي عن العلاء بن الفضل عن أمه قال : لما قُتل عثمان رضي الله عنه فُتِّشوا خزانته ، فوجدوا فيها صندوقاً مقفلاً ، ففتحوه فوجدوا فيه ورقة مكتوبا فيها :

هذه وصية عثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن الله يبعث من في القبور ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد ، عليها يحيى وعليها يموت وعليها يُبعث إن شاء الله !

وأخرجه أيضاً نظام الملك وزاد : ووجدوا في ظهرها مكتوباً :

غنى النفس يُغني النفس حتى يُجلِّها
وإن غضبها حتى يضرُّ بها الفقرُ

وما عُسرة فاصبر لها إن لقيتها
بكائنة إلا سيتبعها يُسرُ
ومَن لم يقاس الدهر لم يعرف الأسي
وفي غير الأيام ما وعد الدهرُ

كذا في رياض النضرة في مناقب العشرة للمحب الطبري ٢ / ١٣٣ .
وروى الدارقطني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كانوا يكتبون في
صدرور وصاياهم : « هذا ما أوصى به فلان بن فلان ، أنه يشهد أن لا إله إلا
الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها
وأن الله يبعث من في القبور ، وأوصى من ترك بعده من أهله بتقوى الله حق
تقاته وأن يصلحوا ذات بينهم ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين ، وأوصاهم
بما أوصى به إبراهيم بنيه ويقعقوب : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا
تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ، البقرة ١٨٠ .
بؤب النووي في كتابه الأذكار « باب وصية الميت أن يصلى عليه إنسان
بعينه أو أن يدفن على صفة مخصوصة الخ » وسرد الأحاديث بعده كما يلي :
روينا في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت على
أبي بكر رضي الله عنه يعنى وهو مريض ، فقال : في كم كفنتم النبي ﷺ ؟
فقلت : في ثلاثة أثواب ، قال : في أي يوم توفي رسول الله ﷺ ؟ قالت :
يوم الاثنين ، قال : فأى يوم هذا ؟ قالت : يوم الإثنين ، قال : أرجو فيما بيني
وبين الليل فنظر إلي ثوب عليه كان يمرض فيه به ردع من زعفران فقال : اغسلوا
ثوبين فكفنوني فيها ، قلت : إن هذا خلق ، قال إن الحي أحق بالجديد من الميت
إنما هو للمهلة فلم يتوف حتى أمسى من ليلة الثلاثاء ودفن قبل أن يصبح .

قوله «للمهلة» : روى بضم الميم وفتحها وكسرهما ثلاث لغات والهاء ساكنة وهو الصديد الذي يتحلل من بدن الميت . قاله النووي .
وروي في صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لما جرح : إذا أنا قبضت فاحملوني - إلى عائشة - ثم سلم وقل : يستأذن عمر فإن أذنت يعني عائشة فادخلوني وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين .
وروي في صحيح مسلم عن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال : قال سعد : الحدوا لي لحداً وانصبوا عليّ اللبن نصباً كما صنع برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروي في صحيح مسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال وهو في سياقة الموت : إذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار فإذا دفنتموني فشنّوا عليّ التراب شنّاً الحديث - قد مر هذا الحديث من قبل مع تخرجه - .
وقال بعد قليل : قلت : وينبغي أن لا يقلد الميت ويتابع في كل ما وصى به بل يعرض ذلك على أهل العلم فما أباحوه فعل ، وما لا فلا ، وأنا أذكر من ذلك أمثلة :

فإذا أوصى بأن يدفن في موضع من مقابر بلدته وذلك الموضع معدن الأختيار فينبغي أن يحافظ على وصيته .
وإذا أوصى بأن يصلى عليه أجنبي فهل يقدم في الصلاة على أقارب الميت فيه خلاف للعلماء ، والصحيح في مذهبنا أن القريب أولى لكن إن كان الموصى له ممن ينسب إلى الصلاح أو البراعة في العلم مع الصيانة والذكر الحسن استحب للقريب الذي ليس هو في مثل حاله إثارة رعاية لحق الميت .
وإذا أوصى بأن يدفن في تابوت لم تنفذ وصيته إلا أن تكون الأرض رخوة

أو ندية يحتاج فيها إليه فتنفذ وصيته فيه ويكون من رأس المال كالكفن .
وإذا أوصى بأن ينقل إلى بلد آخر لا تنفذ وصيته فإن النقل حرام على
المذهب الصحيح المختار الذي قاله الأكثرون وصرح به المحققون ، وقيل :
مكروه ، قال الشافعي رحمه الله : إلا أن يكون بقرب مكة أو المدينة أو بيت
المقدس فينقل إليها لبركتها .

وإذا أوصى بأن يدفن تحته مضرية أو مخدة تحت رأسه أو نحو ذلك لم تنفذ
وصيته .

وكذا إذا أوصى بأن يكفن في حرير فإن تكفين الرجال في الحرير حرام
وتكفين النساء فيه مكروه ليس بحرام والخنثى في هذا كالرجل .
ولو أوصى بأن يكفن فيما زاد على عدد الكفن المشروع أو في ثوب
لا يستر البدن لا تنفذ وصيته .

ولو أوصى بأن يقرأ عند قبره أو يتصدق عنه وغير ذلك من أنواع القرب
نفذت إلا أن يقترن بها ما يمنع الشرع منها بسببه .
ولو أوصى بأن تؤخر جنازته زائدا على المشروع لم تنفذ .
ولو أوصى بأن يبنى عليه في مقبرة مسبلة للمسلمين لم تنفذ وصيته بل
ذلك حرام . انتهى ما ذكره النووي رحمه الله .

الفصل الثالث

من أحب الدفن في الأرض المقدسة أو نحوها وأوصى أن يدفن في موضع فلان

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال أرسل ملك الموت إلى موسى ، فلما جاءه صكّه ففقأ عينه فرجع إلى ربه فقال : أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت فردّ الله عليه عينه وقال : ارجع فقل له يَضَعُ يده على متن ثور فله بكل ما غطت به يده بكل شعرة سنّة ، قال : أي ربّ ثم ماذا ؟ قال : ثم الموت ، قال : فالآن فسأل الله أن يدينه من الأرض المقدسة رميةً بحجر ، قال قال رسول الله ﷺ : فلو كنت ثمّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر .

صحيح البخاري «باب من أحب الدفن في الأرض المقدسة أو نحوها» .
قال العيني في عمدة القارى ٨ / ١٤٨ وقال ابن خزيمة : أنكر بعض أهل البدع والجهمية هذا الحديث وقالوا : لا يخلو أن يكون موسى عليه الصلاة والسلام عرف ملك الموت أو لم يعرفه ؟ فإن كان عرفه فقد استخف به وإن كان لم يعرفه فرواية من روى أنه كان يأتي موسى عياناً لا معنى لها ، ثم إن الله تعالى لم يقتص لملك الموت من اللطمة وفقء العين ، والله تعالى لا يظلم أحداً .
قال ابن خزيمة : وهذا اعتراض من أعمى الله بصيرته ، ومعنى الحديث صحيح ، وذلك أن موسى لم يبعث الله إليه ملك الموت وهو يريد قبض روحه حينئذ وإنما بعثه اخباراً وابتلاء كما أمر الله تعالى خليله بذبح ولده ولم يرد امضاء ذلك ، ولو أراد أن يقبض روح موسى عليه الصلاة والسلام حين لطم الملك لكان ما أراد ، وكان اللطمة مباحة عند موسى إذ رأى آدمياً دخل عليه ولا يعلم

أنه ملك الموت ، وقد أباح الرسول عليه الصلاة والسلام فقاً عين الناظر في دار المسلم بغير إذن ، ومحال أن يعلم موسى أنه ملك الموت ويفقأ عينه .
وقد جاءت الملائكة إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام فلم يعرفهم ابتداءً ، ولو علمهم لكان من المحال أن يقدم إليهم عاجلاً ، لأنهم لا يطعمون .
وقد جاء الملك إلى مريم فلم تعرفه ، ولو عرفته لما استعادت منه .
وقد دخل الملكان على داود عليه الصلاة والسلام في شبه آدميين يختصمان عنده فلم يعرفهما .

وقد جاء جبريل عليه الصلاة والسلام إلى سيدنا رسول الله ﷺ وسأله عن الإيمان فلم يعرفه ، وقال : ما أتاني في صورة قط إلا عرفته فيها غير هذه المرة فكيف يستنكر أن لا يعرف موسى الملك حين دخل عليه ؟ .
وأما قول الجهمي أن الله تعالى لم يقتص للملك فهو دليل على جهله ، من الذي أخبره أن بين الملائكة والآدميين قصاصاً ؟ أو أخبره أن الملك طلب القصاص فلم يقتص له ؟ وما الدليل على أن ذلك كان عمداً ؟ وقد أخبرنا نبينا صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى لم يقبض نبياً قط حتى يريه مقعده من الجنة ويخبره ، فلم ير أن يقبض روحه قبل أن يريه مقعده من الجنة ويخبره .
وقال الخطابي (فإن قيل) : كيف يجوز أن يفعل موسى عليه الصلاة والسلام بالملك مثل هذا الصنيع أو كيف تصل يده إليه أو كيف لا يقبض الملك روحه ولا يمضى أمر الله تعالى به ؟

قلت : أكرم الله موسى عليه الصلاة والسلام في حياته بأمر أفرده بها فلما دنت وفاته لطف أيضاً به بأن لم يأمر الملك به بأخذ روحه قهراً لكن أرسله على سبيل الامتحان في سورة البشر فاستنكر موسى عليه الصلاة والسلام شأنه

ودفعه عن نفسه فأتى ذلك على عينه التي ركبت في الصورة البشرية التي جاءه فيها دون الصورة الملكية ، وقد كان في طبع موسى عليه الصلاة والسلام حدة روى أنه كان إذا غضب اشتعلت قلنسوته ناراً .

وقال النووي فإن قلت : كيف جاز عليه فقء عين الملك ؟ قلت : لا يمتنع أن يأذن الله له في هذه اللطمة ويكون ذلك امتحاناً للملطوم والله يفعل ما يشاء .

وقال ابن قتيبة في مختلف الحديث : أذهب موسى عليه الصلاة والسلام العين التي هي تخيل وتمثيل وليست على حقيقته وعاد ملك الموت إلى حقيقة خلقه الروحاني كما كان لم ينتقص منه شيء .

قوله «فالآن» أى قال موسى عليه الصلاة والسلام فالآن يكون الموت ولفظ الآن ظرف زمان غير متمكن وهو اسم لزمان الحال وهو الزمان الفاصل بين الماضى والمستقبل ، وهو يدل على أن موسى عليه السلام خيره الله تعالى اختار الموت شوقاً إلى لقاء ربه تعالى كما خيره نبينا عليه الصلاة والسلام فقال : «الرفيق الأعلى» .

قوله «فسأل الله أن يدينه من الأرض المقدسة» أى فعند ذلك سأل موسى الله أن يقربه من الأرض المقدسة وهى بيت المقدس ، وقال ابن التين : الأرض المقدسة الشام ، ومعنى المقدسة المطهرة أى سأل الله تعالى الدنو من بيت المقدس ليدفن فيه دنوا لو رمى رام الحجر من ذلك الموضع الذي هو الآن موضع قبره لوصل إلى بيت المقدس ، وإنما سأل ذلك لفضل من دفن في الأرض المقدسة من الأنبياء والصالحين ، فاستحب مجاورتهم في الممات كما في الحياة ، ولأن الناس يقصدون المواضع الفاضلة ويزورون قبورها ويدعون لأهلها .

وقال المهلب : إنما سأل الدنو منها ليسهل على نفسه ويسقط عنه المشقة التي تكون على من هو بعيد منها وصعوبته عند البعث والحشر .
فإن قلت : لم لم يسأل نفس البيت وسأل الدنو منه ؟ قلت : خاف أن يكون قبره مشهوراً فيفتتن به الناس كما أخبر به الشارع أن اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد .

وفي الحديث دلالة على أن لموسى عليه الصلاة والسلام منزلة كبيرة حيث فقأ عين ملك الموت ولم يعاتبه عليه . وفيه استحباب الدفن في المواضع الفاضلة من مدافن الصالحين ، وفيه أن للملك قدرة على التصور بصورة غير صورته .

وفيه في قوله «يضع يده على متن ثور» دلالة على أن الدنيا بقى منها كثير وإن كان قد ذهب أكثرها . وفيه دلالة على الزيادة في العمر مثل الحديث الآخر «من سره أن يبسط في رزقه وينسأ في أثره فليصل رحمه» وهو يؤيد قول من قال في قوله تعالى «وما يعمر من معمر» الآية أنه زيادة ونقص في الحقيقة . انتهى ما ذكره العيني في عمدة القارى بحذف .

قوله «من أحب الدفن في الأرض المقدسة أو نحوها» قال الحافظ في الفتح ٣ / ٢٠٧ قال الزين بن المنير : المراد بقوله «أو نحوها» ماتشد إليه الرحال من الحرمين وكذلك ما يمكن من مدافن الأنبياء وقبور الشهداء والأولياء تيمناً بالجوار وتعرضاً للرحمة النازلة عليهم اقتداء بموسى عليه السلام . انتهى ، وهذا بناء على أن المطلوب القرب من الأنبياء الذين دفنوا بيت المقدس ، وهو الذي رجحه عياض . انتهى .

وقال بعد قليل : وفيه جواز نقل الميت من بلد إلى بلد ، فقيل : يكره لما فيه

من تأخير دفنه وتعرضه لهتك حرمة ، وقيل : يستحب ، والأولى تنزيل ذلك على حالتين : فالمنع حيث لم يكن هناك غرض راجح كالدفن في البقاع الفاضلة وتختلف الكراهة في ذلك فقد تبلغ التحريم ، والاستحباب حيث يكون ذلك بقرب مكان فاضل كما نص الشافعي على استحباب نقل الميت إلى الأرض الفاضلة كمكة وغيرها . والله أعلم . انتهى مقاله الحافظ رحمه الله .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإني أشفع لمن يموت بها . رواه أحمد والترمذي ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب إسناداً . كما في المشكاة «باب حرم المدينة حرسها الله تعالى» .

قوله : «فليمت بها» أى فليقم بها حتى يموت كما في هامش مشكاة المصابيح .

وعن يحيى بن سعيد أن رسول الله ﷺ كان جالساً وقبر يُحفر بالمدينة فاطلع رجل في القبر فقال : بئس مضجع المؤمن ، فقال رسول الله ﷺ : بئسما قلت ، قال الرجل : إني لم أرد هذا إنما أردت القتل في سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : لا مثل القتل في سبيل الله ، ما على الأرض بُقعة أحب إليّ أن يكون قبري بها منها . ثلاث مرات . رواه مالك مرسلًا . كما في المشكاة «باب حرم المدينة حرسها الله تعالى» .

قوله : «إنما أردت» أى أردت أن الشهادة في سبيل الله أفضل من الموت على الفراش . كما في المرقاة .

قوله : «لا مثل القتل» قال في اللغات : لا بمعنى ليس واسمه محذوف أى ليس الموت بالمدينة بمثل القتل في سبيل الله بل هو أفضل بكذا ،

فعلم منه أن الموت في المدينة والدفن فيها أفضل من الموت والدفن في الغربة ، وقد يحتلج أن الظاهر على هذا التقدير أن يقال ليس القتل في سبيل الله مثل الموت بالمدينة ، ويحتمل عبارة الحديث أن يكون معناه نعم ليس الموت بالمدينة مثل القتل في سبيل الله والقتل في سبيله أفضل وأعظم لكن إن لم يرزق الشهادة فالموت في المدينة والقبر فيه أفضل من الموت في سائر البلاد . انتهى مذكره في اللمعات .

وبوّب النووى في «كتاب الأذكار» «باب استحباب دعاء الإنسان بأن يكون موته في البلد الشريف» وسرد الحديث كما يلي :

روينا في صحيح البخاري عن أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنهما «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتى ببلد رسولك صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أتى يكون هذا ، قال : يأتيني الله به إذا شاء . انتهى .
وبوّب أبوبكر بن أبي شيبة في مصنفه باب «الرجل يوصى أن يدفن في الموضع» وسرد الآثار بعده كما يلي :

حدثنا أبو أسامة حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس قال : قالت عائشة : لما حضرتها الوفاة ادفنوني مع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فأني أحدثت بعده .

حدثنا ابن فضيل عن حصين عن عمرو بن ميمون أن عمر قال لعبدالله ابن عمر : اذهب إلى عائشة فسلم وقل : يستأذن عمر بن الخطاب

أن يُدفن مع صاحبيه ، فأتاها عبدالله فوجدها قاعدة تبكى ، فسلم ثم قال :
يستأذن عمر بن الخطاب أن يُدفن مع صاحبيه ، فقالت : قد كنت والله
أريده لنفسى ولأثرته اليوم على نفسى .

حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا شريك عن محمد بن عبدالله عن عمرو
ابن مرة عن أبيه عن عبدالله بن مسعود قال : ادفنوني في قبر عثمان
ابن مظعون .

حدثنا معاوية بن هشام عن سفيان عن رجل أن خيشمة أوصى أن يُدفن في
مقبرة فقراء قومه انتهى .

قوله : « ادفنوني في قبر عثمان بن مظعون » قال الراقم : لعظمة
مكانته - أى لعثمان بن مظعون - عند النبي صلى الله عليه وسلم وقد تمنى
النبي صلى الله عليه وسلم عند دفنه قائلاً : « أَعْلِمُ بِهَا قَبْرَ أَخِي وَأَدْفِنُ إِلَيْهِ مَنْ
مَاتَ مِنْ أَهْلِي » الحديث سندكروه بعد قليل إن شاء الله .

وهو أول من مات من المهاجرين بالمدينة وأول من دفن بالبقيع منهم ،
وما شرب الخمر في الجاهلية ، وقال : لا أشرب ما يضحك من هو دوني ، وكان
من أكابر أهل الصفة . ذكره في اللغات .

وقال صاحب المشكاة في « إكمال في أسماء الرجال » : هو عثمان بن مظعون
يكنى أبا السائب الجمحي القرشي أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً وهاجر الهجرتين
وشهد بدرًا وكان حرم الخمر في الجاهلية ، وقبّل النبي صلى الله عليه وسلم
وجهه بعد موته ولما دفن قال : نعم السلف هو لنا ، ودفن بالبقيع وكان عابداً
مجتهداً من فضلاء الصحابة رضي الله عنهم روى عنه ابنه السائب وأخوه قدامة
ابن مظعون . انتهى بحذف .

وهو الذي وضع النبي صلى الله عليه وسلم الحجر على قبره وقال : «أَعْلِمُ بها قبر أخي وأدفن إليه من مات من أهلي» كما في رواية أبي داود «كتاب الجنائز» باب في جمع الموتى في قبر والقبر يعلم . وبسماء أخي تعظيما له رضي الله عنه . وحديث تقبيل النبي صلى الله عليه وسلم عثمان بن مظعون رضي الله عنه رواه أبو داود في «كتاب الجنائز» «باب تقبيل الميت» عن عائشة رضي الله عنها قالت : رأيت رسول الله ﷺ يقبل عثمان بن مظعون وهو ميت حتى رأيت الدموع تسيل . انتهى .

وذكر السدي : أن يعقوب عليه الصلاة والسلام لما حضره الموت أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند قبر إبراهيم وإسحاق ، فلما مات أرسله إلى الشام فدفن عندهما عليهم السلام . راجع التفسير لابن كثير ٢ / ٤٩٤ .

ثلاث كان يحبها الإمام مالك رحمه الله :

- (١) المجاورة بروضة رسول الله ﷺ .
- (٢) والمدارسه بمحدث رسول الله ﷺ
- (٣) والدفن ببلادة رسول الله ﷺ

﴿اللهم ارزقنا شهادة في سبيلك﴾

﴿واجعل قبورنا ببلد رسولك﴾

﴿صلى الله عليه وسلم﴾

﴿وأدخلنا برحمتك﴾

﴿في عبادك﴾

﴿الصالحين﴾

﴿أمين﴾

الباب السابع

باب الاستغفار

« باب الاستغفار »

اعلم أن هذا الباب من أهم الأبواب التي يعتني بها ، ويحافظ على العمل به ، نسأل الله الكريم بأن يختم لنا به ، ونسأله ذلك وسائر وجوه الخير لي ولأحبائي وسائر المسلمين . آمين .

قال الله تعالى : ﴿ واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار ﴾ .

وقال جلّت عظمتة : ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ .

وقال جل جلاله : ﴿ للذين اتقوا عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد الذين يقولون ربنا إننا آمنّا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ .

وقال جل شأنه : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ .

وقال تعالى إخباراً عن نوح صلى الله عليه وسلم : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفراً ﴾ .

وقال تعالى حكاية عن هود صلى الله عليه : ﴿ يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ .

والآيات في الاستغفار كثيرة معروفة ويحصل التنبيه ببعض مذكرناه .
هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، فاضت رحمته وشملت
رأفته عباده ، ومن منن الله جلّت عظمته على أمة محمد صلى الله عليه
وسلم إمهاله للخائضين في أودية الذنوب والمعاصي الكبائر منها والصغائر
المتقحمين^(١) - أي داخلين النَّار مثل الجنادب والفراش يقعن فيها - ورسول
الله ﷺ بما بعثه الله به من الهدى والنور آخذ بحجزنا عن النَّار ونحن فارون
من خالقنا ومالكنا إلى شهواتنا وغارقون في الغفلة والسكره والوغون في المعاصي
وهو سبحانه حلیم لا يبطش بنا ولا يهلكنا حالاً بل يمهلنا ويأمر نبيّه ﷺ أن
يعلن كرمه : ﴿ قل يا عبادي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾^(٢) .
ويقول لطفاً لعباده : ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾^(٣)
وقال جلّت عظمته : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾^(٤) وقال
جل وعلا : ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾^(٥) .

(١) فقد ورد الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«مثلي كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها جعل الفرّاش وهذه الدواب التي تقع في
النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن - أي يمنعهن - ويغلبهن - أي على الوقوع - فيتقحمّن فيها
- أي يدخلن فيها - فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها» .
هذه رواية البخاري ولمسلم نحوها ، وقال في آخرها : قال : «فذلك مثلي ومثلكم أنا آخذ
بحجزكم عن النار هلّم عن النار هلّم عن النار فتغلبوني تقحمون فيها» . كما في المشكاة «باب
الاعتصام بالكتاب والسنة» .

(٢) سورة الزمر : ٥٣ . (٣) سورة المائدة : ٧٤ .

(٤) سورة التوبة : ١٠٤ . (٥) سورة طه : ٨٢ .

ولم يقتصر ربُّنا على هذا الكرم والجود والرَّحمة والمغفرة بل تاب على عباده ليتوبوا لئلا يستحقوا البطش والعقاب الأشقَّ ، قال التَّوَّابُ الرَّحِيمُ :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ^(١) ﴾ .

قال الحسن البصري رحمه الله : انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

وقد روى أن عطاء السليمي - رضي الله عنه - رُؤي بعد موته ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : قال لي : يا عطاء ! أما استحييت منِّي أن تخافني كلَّ هذا ؟ أما بلغك أنَّي غفور رحيم ^(٢) ؟ .

قلت : ومن كرم الله المتزايد على عباده : أنه يغفر الذنوب ويمحوها من صحائف أعمالهم حتى لا يبقى لها أي أثر ، وإنا نرى في الدُّنيا أن المأخوذ في أي جرم إذا حبس في السجن أو عذب فإنه متى يسلم من السجن أو العذاب لا يُمحى ذنبه من الدفاتر ، بل يحفظ سجل جرمه وعذابه في الدوائر الرسمية المختصة ، ولكن الله تعالى يغفر ذنوب عبده ويستر ويمحو حتى لا يبقى له أي أثر في صحيفة أعماله .

وجوده جل وعلا لا يقف عند حد بل ﴿ يَبْدُلُ ^(٣) اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ^(٤) ﴾ .

(١) سورة التوبة : ١١٨ . (٢) راجع «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله» جمع وترتيب : عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي وساعده ابنه محمد وفقهما الله ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨١هـ بمطبعة الرياض ج ١١ ص ٥

(٣) سورة الفرقان : ٧٠ .

(٤) قوله تعالى : ﴿ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ فإن قيل كيف يتصور تبديل السيئة على هذا المعنى بالحسنة ؟ وكيف يثاب على السيئة ؟ فإن السيئة أمر مكروه ، غير مرضي لله تعالى ، فكيف يتصور كونه مرضيا له سبحانه ، فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والعصيان ؟ =

قال الحافظ ابن كثير مفسراً لهذه الآية ٣ / ٣٢٨ :

إن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ماضى ندم واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار . انتهى كلام ابن كثير رحمه الله .

وأما الأحاديث الواردة في الاستغفار فلا يمكن استقصاءها لكنى أشير إلى أطراف من ذلك .

عن أبي سلمة بن عبدالرحمن قال قال أبوهريرة رضي الله عنه : سمعت النبي ﷺ يقول : والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة صحيح البخاري «باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة»

= أجاب عنه صاحب التفسير المظهرى الشيخ القاضي محمد ثناء الله العثماني المتوفى سنة ١٢٢٥هـ رحمه الله فقال : توجيه ذلك عندي أن عباد الله الصالحين كلما صدر عنهم ما كتب الله عليهم من العصيان ندموا غاية الندم ، واستحققوا أنفسهم غاية الاستحقار والتجوا إلى الله تعالى كمال الالتجاء ، وخافوا عذاب الله مع رجاء المغفرة ، فاستغفروه ، حتى صاروا مهبطاً لكمال الرحمة بحيث لو لم يذنبوا لم يصيروا بهذه المثابة ، فعلى هذا صار عصيانهم الذي كان سبباً للعقاب سبباً للثواب ، ولو بتوسط الندم والتوبة ، ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ، فيستغفرون الله ويغفرهم» . رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «استغفروا لما عزر بن مالك ، لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم» .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد حين سب المرأة الغامدية : مهلا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تاب توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له» . رواه مسلم في قصة ماعز والغامدية عن بريدة . وهذا ما قيل معصية أولها غفلة وآخرها ندامة خير من طاعة أولها عجب وآخرها رؤبة . من التفسير المظهرى ٧ / ٥٠ و ٥١ .

بَوَّبَ أبو داود في سننه «باب في الاستغفار» وسرد الأحاديث كما يلي :

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ :
 مَأْصُرٌ^(١) من استغفر ، وإن عاد في اليوم سبعين مرة .

وعن أبي بردة عن الأغر المزني قال مسدد في حديثه وكانت له صحبة قال
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه ليغان^(٢) على قلبي وإنى لاستغفر الله
 في كل يوم مائة مرة .

(١) قوله «مَأْصُرٌ من استغفر» قال في النهاية : أصر على الشيء إصراراً إذا لزمه وداومه وثبت عليه وأكثر ما يستعمل في الشر والذنوب يعنى من اتبع الذنوب بالاستغفار فليس بمصر عليها وإن تكررت منه ، وقوله سبعين مرة : ظاهره التكرير والتكرير ، وقال بعض علمائنا المصر هو الذي لم يستغفر ولم يندم على الذنب ، والاصرار على الذنب إكثاره ، وقال ابن الملك : الاصرار الثبات والدوام على المعصية يعنى من عمل معصية ثم استغفر فندم على ذلك خرج عن كونه مصرّاً ، وقال الطيبي : الاستغفار يرفع الذنوب بماورد في الحديث من أنه لا صغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار، فقد قيل حد الاصرار أن يتكرر منه الصغيرة تكراراً .

وقال ابن حجر يحتمل أن يراد بالاستغفار التوبة وحيثئذ نفى الاصرار ظاهر . من التعليق المحمود على سنن أبي داود .

(٢) قوله «إنه ليغان على قلبي الخ» هذا الحديث من التشابهات التي لايعلم معناها ، وقد وقف الأصمعي إمام اللغة عن تفسيره وقال : لو كان قلب غير النبي صلى الله عليه وسلم لتكلفت عليه كذا قاله السيوطي . .

قال بعض المحققين قوله ليغان على قلبي على بناء المفعول من الغين وأصله الغيم لغة وحقيقته بالنظر إلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم لاندرى ، وإن قدره صلى الله عليه وسلم أجل وأعظم مما يخطر في كثير من الأوهام فالتفويض في مثله أحسن ، نعم القدر المقصود بالافهام مفهوم وهو أنه صلى الله عليه وسلم كان يحصل له حالة داعية إلى الاستغفار فيستغفر =

وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إن كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرة: رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم .

وعن أسماء بن الحكم قال سمعت علياً رضي الله عنه يقول كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله منه بما شاء أن ينفعني ، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلقتة فإذا حلف لي صدقته قال : وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له ، ثم قرأ الآية ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾ إلى آخر الآية .

وعن أبي عمر بن مرة قال سمعت هلال بن يسار بن زيد مولى النبي ﷺ قال : سمعت أبي يحدثني عن جدي أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : من قال : «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه» غفر له وإن كان فر من الزحف .

= كل يوم مائة مرة فكيف بغيره ؟ وقال بعض الفضلاء الغين الستر يقال غين عليه كذا أى غطى عليه . وقوله على قلبي : مرفوع على نيابة الفاعل يعنى ليغشى على قلبي ما لا يخلو البشر عنه من سهو والتفاوت إلى حظوظ النفس من مأكول ومنكوح ونحوهما فإنه كحجاب وغيم يطبق على قلبه فيحول بينه وبين الملأ الأعلى حيلولة ما فيستغفر تصفية للقلب وإزاحة للغاشية وهو إن لم يكن ذنباً لكنه من حيث أنه بالنسبة إلى سائر أحواله نقص وهبوط إلى حضيض البشرية تشابه الذنب فيناسبه الاستغفار . قال القاضي : المراد فترات وغفلات في الذكر الذي شأنه الدوام عليه فإذا فتر أو غفل عنه عدّه ذنباً واستغفر كذا ذكره القاري ، وذكر أيضاً أقوالاً أخر ، وقال في آخرها : المنسختار أنه من التشابه الذي لا يخاض في معناه والله أعلم . من التعليق الحمود على سنن أبي داود .

وعن أنس رضي الله عنه قال : « كنا مع رسول الله ﷺ في مسير ، فقال : استغفروا الله ، فاستغفرنا ، فقال : أتموها سبعين مرة ، يعني فأتمناها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من عبد ولا أمة يستغفر الله كل يوم سبعين مرة إلا غفر الله له سبعمائة ذنب ، وقد خاب عبداً أو أمة عمل في يوم وليلة أكثر من سبعمائة ذنب^(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من جلس مجلساً فكثر لعطه فقال قبل أن يقوم : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لا إله إلا أنت ، أستغفرك ثم أتوب إليك ، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك^(٢) .
وعن عامر بن تميم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من استبطأ الرزق فليكثر من الاستغفار ، ومن كثر همّه وغمّه فليكثر من التكبير^(٣) .

وعن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد عرضت عليّ الجنة والنار ، حتى جعلتُ أنفخها ، وخفتُ أن تغشاكم ،

(١) تاريخ بغداد ٦ / ٣٩٢ من طريق أبي العباس الفضل بن حماد النيسابوري عن أبي جابر به .
وأخرجه البيهقي في الشعب (٦٥٢) من طريق الحسن بن أبي جعفر .

(٢) شرح السنة ٥ / ١٣٤ من طريق أحمد بن عبيدالله عن نوسي عن حجاج بن محمد به ،
أبو داود (٤٨٥٨) ، والترمذي : (٣٤٣٣) وقال : حسن صحيح غريب من هذا الوجه لا نعرفه من حديث سهيل إلا من هذا الوجه ، وصححه ابن حبان ، (٢٣٦٦) والحاكم
٥٣٦ / ١ ووافقه الذهبي ، وانظر الترغيب ٢ / ٤١١ ، ابن السني (٤٤١) .

(٣) كنز العمال (٩٣٢٥) من حديث أنس ، رواه الديلمي ولكن بلفظ : « من استبطأ الرزق فليكثر من التكبير ومن كثر همّه وغمّه فليكثر من الاستغفار » .

وجعلتُ أقولُ : رَبِّ أَلَمْ تَعَذِّنِي أَلَّا تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ ، أَلَمْ تَعَذِّنِي أَلَّا تُعَذِّبَهُمْ
وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ^(١) .

وعن ثابت البناني قال : « كان شاب في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبسُ ويتيأُ ، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم قصرَ وشمرَ في العبادة ، قالوا : لو كان مافعلتَ ورسول الله صلى الله عليه وسلم حيُّ لقررتُ عينه بك ، فقال : أما إنَّه كان لي أمانان فمضى أحدهما ، وبقي الآخرُ ، قال الله - عز وجل - : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ فقد مضى أحدُ أمانَيَّ ، وقال الله - عز وجل - : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مَعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فلا أزالُ أجتهدُ^(٢) .

فضالة بن عبيد رضي الله عنه يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم :
« العبدُ آمنٌ من عذاب الله تعالى ما استغفر الله »^(٣) .

وعن حذيفة بن اليمان قال : « شكوتُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ذرْبَ لساني ، فقال : أين أنت عن الاستغفار ، إنِّي أستغفر الله تعالى في اليوم والليلة مائة مرَّة^(٤) » .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوبُ إليه ، غُفر له ذنوبُهُ وإن كانت مثل زبد البحر »^(٥) .

رواه النسائي : ٣ / ١٣٧ من طريق عبدالعزيز بن عبد الصمد ، أبو داود (١١٩٤) من طريق حماد ،

الترمذي في الشمائل عن قتبية ، عن جرير كلهم عن عطاء به .

(٢) انظر الدر المنثور ٣ / ١٨٢ ، ابن كثير ٣ / ٥٩٠ . (٣) مسند أحمد ٦ / ٢٠ .

(٤) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة ، مسند أحمد ٥ / ٣٩٤ و ٣٩٦ . وابن ماجه (٣٨١٧) .

(٥) انظر المستدرک ١ / ٥١١ ، ٢ / ١١٨ مجمع الزوائد ١٠ / ٢١٠ .

وعن أبي وائل ، عن عبد الله رضي الله عنه قال : «والله إني لأعلمُ في القرآن آية هي خيرٌ لأهل الذنوب من الدنيا وما فيها : ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾^(١) آل عمران : ١٣٥ .

وعن النبي ﷺ قال : «الاستغفار في الصحيفة نورٌ يتلأأ^(٢)» .

وعن قتادة قال : «إن هذا القرآن يدلُّكم على دوائكم ودوائكم ، أمَّا دواؤكم فالذنوب والخطايا ، وأمَّا دواؤكم فالاستغفار^(٣)» .

وعن أبي المنهال قال : «ما جاور عبد في قبره من جار أحبُّ إليه من استغفار كثير^(٤)» .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : «طوبى لمن وجد في صحيفته تَبْذًا من استغفار^(٥)» .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله عزوجل ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول : يارب أنى^(٦) لي هذه ؟ فيقول : باستغفار^(٧)» ولذلك لك . رواه أحمد كما في المشكاة باب التوبة والاستغفار .

(١) الدر المنثور ٢ / ٧٧ بنحوه ، وعزاه السيوطي لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والطبراني وابن أبي الدنيا وابن المنذر والبيهقي عن ابن مسعود .

(٢) راجع كنز العمال (٢٠٦٤) عن معاوية بن حيدة .

(٣) راجع كتاب الترغيب والترهيب للإمام الحافظ أبي القاسم : إسماعيل بن محمد بن الفضل الجوزي الأصبهاني ١ / ١١٩ طبع مكتبة النهضة الحديثة .

(٤،٥) المصدر السابق المذكور .

(٦) أى كيف حصل لي ؟ أو من أين حصل لي هذه الدرجة السنية .

(٧) قوله «باستغفار ولذلك» هذا أحد منافع النكاح وأعظمها ، وأحد الأشياء الثلاثة التي تلحق المؤمن من حسناته وعمله بعد موته كما جاء في الحديث . (من اللغات) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه حدثه قال قال رسول الله ﷺ :
«من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم
فرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب» .

انتهى ما ذكره أبو داود في سننه بحذف

قوله : «من لزم الاستغفار جعل الله الخ» قال في التعليق المحمود على
سنن أبي داود : أي عند صدور معصية وظهور بلية أو من داوم عليه فإنه في
كل نفس يحتاج إليه ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : «طوبى لمن وجد في
صحيفته استغفاراً كثيراً» رواه ابن ماجه بإسناد صحيح .

قوله : «مخرجاً» أي طريقاً وسبباً يخرج إلى سعة ومنحة ، وكذا قوله :
«ومن كل هم» ، أي غم يهّمه «فرجاً» أي خلاصاً ، «ورزقه» أي حلالاً
طيباً «من حيث لا يحتسب» أي لا يظن ولا يرجو ولا يحظر بياله .

والحديث مقتبس من قوله تعالى : ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من
حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله
لكل شيء قدراً﴾ فتأمل في الآية ، فإن فيها كنوزاً من الأنوار ورموزاً من
الأسرار ، والحديث إما تسلية للمذنبين فنزلوا منزلة المتقين ، أو أراد
بالمستغفرين التائبين فهم من المتقين ، أو لأن الملازمين للاستغفار لما حصل لهم
مغفرة الغفار كأنهم من المتقين .

قال الطيبي : من داوم الاستغفار وأقام بحقه كان متقياً وناظراً إلى قوله
تعالى : ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفراً يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ .

روى عن الحسن أن رجلا اشتكى إليه الجذب فقال : استغفر الله وشكى إليه الآخر بفقر ، وآخر قلة النسل ، وآخر قلة ريع أرضه فأمرهم كلهم بالاستغفار ، فقيل : شكوا إليك أنواعاً فأمرتهم بالاستغفار ؟ فتلا الآية . اهـ .
كذا قاله علي القارى في المرقاة شرح المشكاة .

وروى البخاري في صحيحه عن شداد بن أوس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : سيد الاستغفار أن يقول العبد : «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» من قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة ، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة . كما في التفسير لابن كثير ١ / ٢٤٤ .

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن عنبسة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم شيخ كبير يدعم على عصاه ، فقال : يا رسول الله إن لي غدرات وفجرات فهل يغفر لي ؟ فقال ﷺ : أأست تشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : بلى ، وأشهد أنك رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : قد غفر لك غدراتك وفجراتك . تفرد به أحمد كما في التفسير لابن كثير ٤ / ٥٩ .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ حديث الذي قتل تسعا وتسعين نفساً ثم ندم وسأل عابداً من عباد بني إسرائيل هل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله وأكمل به مائة ، ثم سأل عالماً من علماءهم هل له من توبة ؟ فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها فقصدها فأتاه الموت في أثناء الطريق

فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأمر الله عزوجل أن يقيسوا ما بين الأرضين فأبلى أيهما كان أقرب فهو منها ، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشير فبقضته ملائكة الرحمة ، وذكر أنه نأى بصدرة عند الموت وأن الله تبارك وتعالى أمر البلدة الخيرة أن تقترب ، وأمر تلك البلدة أن تتباعد .
راجع التفسير لابن كثير : ٤ / ٥٩ - ٦٠ .

وذكر بعد قليل : وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عزوجل : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ إلى آخر الآية :

قد دعا الله تعالى إلى مغفرته:

مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ اللَّهُ ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ المائدة : ١٧
 وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ ابْنُ اللَّهِ ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ التوبة : ٣٠
 وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ عَزِيزاً ابْنَ اللَّهِ ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله﴾ التوبة : ٣٠
 وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير﴾ آل عمران : ١٨١
 وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ يَدَ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ المائدة : ٦٤
 وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ المائدة : ٧٣
 يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِهَؤُلَاءِ : ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم﴾ .
 ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولاً من هؤلاء :
 مَنْ قَالَ : ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ .
 وَقَالَ : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ .
 قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا :
 «مَنْ آيَسَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ التَّوْبَةَ بَعْدَ هَذَا فَقَدْ جَحَدَ كِتَابَ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ ،
 وَلَكِنْ لَا يَقْدِرُ الْعَبْدُ أَنْ يَتُوبَ حَتَّى يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ .

وروى الطبراني من طريق الشعبي أنه قال
سمعت ابن مسعود يقول :

إن أعظم آية في كتاب الله ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ .
وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ .
وإن أكثر آية في القرآن فرحاً ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على
أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ .

وإن أشد آية في كتاب الله تفويضاً ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً
ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ فقال له مسروق : صدقت .

وقال الأعمش : قال مرَّ عبدالله يعنى ابن مسعود رضي الله
عنه على قاص وهو يذكر الناس فقال : يامدكر لم تقنط الناس من رحمة الله ؟
ثم قرأ ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ رواه
ابن أبي حاتم رحمه الله .

وروى ابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير قال : إن إبليس لعنه الله تعالى
قال : يارب ! إنك أخرجتني من الجنة من أجل آدم وإني لا أستطيعه إلا
بسلطانك ، قال فأنت مسلط ، قال : يارب زدني ، قال : لا يولد له ولد إلا
ولد لك مثله ، قال : يارب ! زدني ، قال : أجعل صدورهم مساكن لكم
وتجرون منهم مجرى الدم ، قال : يارب ! زدني ، قال : أجلب عليهم بخيلك
ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً .
فقال آدم عليه الصلاة والسلام : يارب ! قد سلطته عليَّ وإني لا أمتنع إلا
بك قال تبارك وتعالى لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء
قال : يارب ! زدني قال : الحسنه عشر أو أزيد والسيئه واحده أو أمحوها ،

قال : يارب ! زدني ، قال : باب التوبة مفتوح ماكان الروح في الجسد ، قال : يارب ! زدني ، قال : ﴿ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ انتهى بحذف ماقاله الحافظ ابن كثير تحت الآية المذكورة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاءتني امرأة فقالت : هل لي من توبة ؟ إني زينت وولدت وقتلته ، فقلت : لا ولا نَعَمَتِ العين ولا كرامة ؟ فقامت وهي تدعو بالحسرة ، ثم صليتُ مع النبي ﷺ فقصصتُ عليه ماقلت المرأة وما قلت لها ، فقال رسول الله ﷺ : بِسْمَا قلت ! أما كنت تقرأ هذه الآية ﴿والَّذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر - إلى قوله - إلا من تاب﴾ الآية ؟ فقرأتها عليها فخرتُ ساجدة وقالت : الحمد لله الذي جعل لي مخرجاً . هذا حديث غريب من هذا الوجه وفي رجاله من لا يعرف . وقد رواه ابن جرير بسنده بنحوه وعنده :

فخرجت تدعو بالحسرة وتقول : يا حسرتنا أخلق هذا الحسن للنار وعنده أنه لما رجع من عند رسول الله ﷺ تطلَّبتُها في جميع دور المدينة فلم يجدها ، فلما كان من الليلة المقبلة جاءته فأخبرها بما قال له رسول الله ﷺ فخرتُ ساجدة وقالت : الحمد لله الذي جعل لي مخرجاً وتوبة مما عملت ، وأعتقت جارية كانت معها وابنتها وتابت إلى الله عزوجل كما في التفسير لابن كثير ٣ / ٣٢٩ .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً فقال : أذنب عبد ذنبا فقال : اللهم اغفر لي ذنبي ، فقال تعالى : أذنب عبدي ذنبا علم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب ، فقال : رب اغفر لي ذنبي

فقال تعالى : أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب ، فقال : رب اغفر لي ذنبي ، فقال تعالى : أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، اعمل ما شئت فقد غفرت لك . كما في جمع الفوائد ٣ / ٤٣٤ طبع المدينة المنورة .

وعن أبي هريرة رفعه : كان في بنى إسرائيل رجلان متواخيان أحدهما مذنب والآخر في العبادة مجتهد ، وكان المجتهد لا يرى الآخر على ذنب فيقول : اقصر ، فوجده يوماً على ذنب فقال : اقصر ، فقال : خلني وربّي ، أبعثت عليّ رقيباً ؟ فقال له : والله لا يغفر الله لك ، أو قال : لا يدخلك الجنة ، فقبض الله أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال تعالى للمجتهد : أكنت على ما في يدي قادراً ؟ قال للمذنب : اذهب فادخل الجنة برحمتي ، وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار ، وقال أبو هريرة : تكلم والله بكلمة أوبقت دنياه وآخرته . لأبي داود . المصدر السابق المذكور .

وأخرج ابن جرير عن أبي الجوزاء قال : اختلفتُ إلى ابن عباس ثلاث عشرة سنة ، فما من شيء من القرآن إلا سألتُه عنه ، ورسولي يختلف إلى عائشة ، فما سمعته ولا سمعت أحداً من العلماء يقول إن الله يقول لذنب لا اغفره . الدر المنثور ٢ / ١٦٩ .

وأخرج أحمد وابن مردويه عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ قال : إن الله يقول : يا عبدي ما عبدتني ورجوتني فأني غافر لك على ما كان فيك ، ويا عبدي لو لقيتني بقرباب الأرض خطايا ما لم تشرك بي شيئاً لقيتكَ بقربابها مغفرة . الدر المنثور ٤ / ١٧ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير والبيهقي في البعث عن قتادة قال :

كنا عند أنس بن مالك وثمَّ أبوقلابة فحدث أبوقلابة قال : إن الله تعالى لما لعن إبليس سأله النظرة ، فأنظره إلى يوم الدين ، فقال : وعزتك لا أخرج من قلب ابن آدم مادام فيه الروح ، قال : وعزتي لأحجب عنه التوبة مادام فيه الروح .
الدر المنثور ٢ / ١٣٠ .

يحدث عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «أيُّها الناس تُوبوا إلى ربِّكم فإنِّي أتوب إلى الله كلَّ يوم مائة مرة ، قيل لسفيان : فكيف يتوبُ إلى الله كلَّ يوم مائة مرة ؟ قال : كأنه استغفار^(١)» .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا تاب العبد من ذنوبه أنسى الله حفظه ذنوبه وأنسى ذلك جوارحه ومعامله من الأرض حتى يلقي الله يوم القيامة وليس عليه شاهد من الله بذنب^(٢)» .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله تبارك وتعالى لأفرح بتوبة عبده من أحدكم بضالته يجدها بأرضٍ مهلكة يخاف أن يقتله بها العطش^(٣)» .

وعن عائشة رضي الله عنها قال : «جاء جيب^(٤) بن الحارث إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إنِّي رجلٍ مقراف^(٥) للذنوب ، فقال : تب إلى الله يا جيب ! فقال : يا رسول الله ! إنِّي أتوبُ ثمَّ أعود ، قال : كلما أذنبت فُتِبْ قال : إذا يارسول الله تكثرت ذنوبي ، قال : عفو الله أكثر من ذنبك يا جيب بن الحارث^(٦)» .

(١) أخرجه أحمد ٤ / ٢٦٠ - ٢٦١ و ٥ / ٤١١ من طريق أبي بردة ، وصححه الالباني في

صحيحه (١٤٥٢) . (٢) عزاه المنذري في الترغيب ٤ / ٩٤ للأصبهاني وضعفه .

(٣) أخرجه مسلم ٤ / ٢١٠٢ من طريق الأعرج عن أبي هريرة بلفظ : «الله أشد فرحاً بتوبة أحدكم من أحدكم بضالته إذا وجدها» . (٤) جيب بالجيم مضمومة .

(٥) قوله : مقراف : مفعال من قرفت الذنب أى اكتسبته أى أنا رجل كثير الذنب .

(٦) أخرجه الحكيم والباوردي وأبو نعيم من طريق نوح بن ذكوان ، وهو ضعيف كذا في الكنز .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل شيء يتكلم به ابن آدم فإنه مكتوب عليه ، فإذا أخطأ خطيئة فأحَبُّ أن يتوب إلى الله ، فليأت بقعة رقيقة فليمدد يديه إلى الله ثم يقول : اللهم إني أتوب إليك منها لا أرجع إليها أبداً فإنه يغفر له ما لم يرجع في عمله ذلك »^(١) .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يدا الله يُسْطان لمسيء الليل يتوبُ بالنهار ولمسيء النهار يتوبُ بالليل حتى تطلع الشمس من مغربها »^(٢) .

وعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال : كنا نأتي رسول الله ﷺ إذا نزل شيء يحشنا ، فقال لنا يوماً : « إن الله قال : إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو أن لابن آدم واديين من مالٍ لأحَبُّ أن يكونَ إليهما الثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا الترابُ ويتوبُ الله على من تاب »^(٣) .

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها : « إن كنتِ الممتِ بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن التوبة من الذنب الندمُ والاستغفار »^(٤) .

وعن علي رضي الله عنه قال : « ليس الخَيْرُ أن يكثرَ مالك وولدك ، ولكن الخَيْرُ أن يكثرَ عملك و (لا) تباهي الناس في عبادة ربك ، إن أحسنت حمدت الله تعالى ، وإن أسأت استغفرت الله تعالى ، لا خير في الدنيا إلا لرجلين ، رجل أذنب ذنوباً فهو يتدارك ذلك بتوبة أو يُسارع في دار الآخرة »^(٥) .

(١) أخرجه الحاكم ١/ ٥١٦ ، والبيهقي ١٠/ ١٥٤ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(٢) أخرجه البغوي في التفسير ٢/ ٢٠٤ . (٣) أخرجه أحمد ٥/ ٢١٨ و ٢١٩ .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم من طريق الزهري به ، أثناء حديث الإفك .

(٥) راجع كتاب الترغيب والترهيب ص ٣٣٣ للإمام الحافظ أبي القاسم الأصبهاني .

الباب الثامن
باب التوبة

باب التوبة

« فصل »

عقبة التوبة

هكذا بَوَّب الغزالي في كتابه «منهاج العابدين» وقال : ثم عليك ياطالب العبادة وفقك الله بالتوبة وذلك لأمرين :

أحدهما : ليحصل لك توفيق الطاعة ، فإن شؤم الذنوب يورث الحرمان ويعقب الخذلان ، وإن قيد الذنوب يمنع عن المشى إلى طاعة الله عزوجل ، والمسارة إلى خدمته ، لأن ثقل الذنوب يمنع من الخفة للخيرات والنشاط في الطاعات ، وإن الاصرار على الذنوب مما يسود القلوب فتجدها في ظلمة وقساوة ، لا خلوص فيها ولا صفاوة ولا لذة ولا حلاوة ، وإن لم يرحم الله فستجر صاحبها إلى الكفر والشقاوة .
فيا عجباً ! كيف يوفق للطاعة من هو في شؤم وقسوة ؟ وكيف يدعى إلى الخدمة من هو مصر على المعصية ومقيم على الجفوة ؟ وكيف يقرب للمناجاة من هو متلطح بالأقذار والنجاسات .

ففي الخبر عن الصادق المصدوق رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا كذب العبد تنحى عنه الملكان من تنن ما يخرج من فيه . فكيف يصلح هذا اللسان لذكر الله عزوجل ؟ فلا جرم لا يكاد يجد المصر على العصيان توفيقاً ولا تخف أركانه لعبادة الله تعالى ، فإن أنفق فبكد فلا حلاوة معه ولا صفاوة ، وكل ذلك لشؤم الذنوب وترك التوبة .

ولقد صدق من قال : إذا لم تقو على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك مكبول ، قد كبلتك خطيئتك ، فهذه هذه .

والثاني : من الأمرين إنما تلزمك التوبة لتقبل منك عبادتك ، فإن ربَّ الدِّين لايقبل الهدية ، وذلك أن التوبة عن المعاصي وارضاء الخصوم فرض لازم وعمامة العبادة التي تقصدهما نفل ، فكيف يقبل منك تبرعك والدين عليك حال لم تقضه ؟ وكيف تترك لأجله الحلال والمباح وأنت مصر على فعل المحظور والحرام ؟ وكيف تناجيه وتدعوه وتثنى عليه وهو والعياذ بالله عليك غضبان ، فهذا ظاهر حال العصاة المصيرين على المعصية والله المستعان .
فإن قلت : فما معنى التوبة النصوح وما حدها ؟ وما ينبغي للعبد أن يفعله حتى يخرج من الذنوب كلها .

فأقول أما التوبة فإنها سعى من مساعى القلب ، وهى عند التحصيل في قول العلماء رضي الله عنهم تنزيه القلب عن الذنب .

قال شيخنا رحمه الله في حد التوبة أنه ترك اختيار ذنب سبق مثله عنه منزلة لاصورة تعظيماً لله تعالى وحذراً من سخطه فلها إذا أربعة شرائط :

أحدها : ترك اختيار الذنب وهو أن يوطن قلبه ويجرد عزمه على أنه لايعود إلى الذنب البتة ، فأما إن ترك الذنب وفي نفسه أنه ربما يعود إليه أولاً يعزم على ذلك بل يتردد فإنه ربما يقع له العود فإنه ممتنع عن الذنب غير تائب منه .

والثانية : أن يتوب من ذنب قد سبق عنه مثله إذ لو لم يسبق عنه مثله لكان متقياً غير تائب ، ألا ترى أنه يصح القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان متقياً عن الكفر ولا يصح القول بأنه تائباً من الكفر إذا لم يسبق عنه كفر بحال ، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان تائباً عن الكفر لما سبق عنه ذلك .

والثالثة : أن الذي سبق عنه يكون مثل الذي يترك اختياره في المنزلة والدرجة لا في الصورة ، ألا ترى أن الشيخ الهرم الفاني الذي سبق منه الزنا وقطع الطريق إذا أراد أن يتوب عن ذلك تمكنه التوبة لاحالة إذ لم يعلق عنه بابها ولا يمكنه ترك اختيار الزنا وقطع الطريق إذ هو لا يقدر الساعة على فعل ذلك فلا يقدر على ترك اختياره فلا يصح وصفه بأنه تارك له ممتنع عنه وهو عاجز عنه غير متمكن منه لكنه يقدر على فعل ما هو مثل الزنا وقطع الطريق في المنزلة والدرجة كالكذب والقذف والغيبة والتيممة إذا جميع ذلك معاص ، وإن كان الاسم يتفاوت في كل واحدة بقدرها لكن جميع هذه المعاصي الفرعية كلها بمنزلة واحدة ، وهي دون منزلة البدعة ، ومنزلة البدعة دون منزلة الكفر فلذلك تصح منه التوبة عن الزنا وقطع الطريق وسائر ماضى من الذنوب التي هو عاجز عن أمثالها اليوم في الصورة .

والرابعة : أن يكون ترك اختياره لذلك تعظيماً لله عزوجل ، وحذراً من سخطه وأليم عقابه مجرداً لا لرغبة دنيوية أو رهبة من الناس ، أو طلب ثناء أو جاه أو ضعف في النفس أو فقر أو غير ذلك فهذه شرائط التوبة وأركانها ، فإذا حصلت واستكملت فهي توبة حقيقية صادقة .

وأما مقدمات التوبة فثلاث : إحداها : ذكر غاية قبح الذنوب .

والثانية : ذكر شدة عقوبة الله عزوجل وأليم سخطه وغضبه الذي لا طاقة

لك به .

والثالثة : ذكر ضعفك وقلة حيلتك في ذلك فإن من لا يتحمل حر شمس

ولا لظمة شرطي ولا قرص نملة كيف يتحمل حر نار وضرب مقامع الزبانية ولسع

حيات كأعناق البخت وعقارب كالبغال خلقت من النار في دار الغضب

والبوار نعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سخطه وعذابه ، فإذا واضبت على هذه الأذكار وعاودتها آناء الليل وأطراف النهار فإنها ستحملك على التوبة النصوح من الذنوب والله الموفق لفضله .

فإن قيل أليس قد قال النبي صلى الله عليه وسلم : الندم التوبة . ولم يذكر مما ذكرتم من شرائطها وشددتم شيئاً .

يقال له اعلم أولاً : أن الندم غير مقدور للعبد ، ألا ترى أنه تقع الندامة عن أمور في قلبه وهو يريد أن لا يكون ذلك ، والتوبة مقدورة للعبد لمأمور بها ثم إنا قد علمنا أنه لو ندم على الذنوب لما ذهب بذلك جاهه بين الناس أو ماله في النفقة فيها ، فإن ذلك لا يكون توبة بلا ريب ، فعلمت بذلك أن في الخبر معنى لم تفهمه من ظاهره وهو أن الندم لتعظيم الله سبحانه وخوف عقابه مما يبعث على التوبة النصوح ، فإن ذلك من صفات التائبين وحالمهم فإنه إذا ذكر الأذكار الثلاثة التي هي مقدمات التوبة ندم وحملته الندامة على ترك اختيار الذنوب وتبقى ندامته في قلبه في المستقبل فتحمله على الإبتهاال والتضرع ، فلما كان ذلك من أسباب التوبة وصفات التائب سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم التوبة فافهم ذلك موقفاً إن شاء الله تعالى .

فإن قلت : كيف يمكن الإنسان أن يصير بحيث لا يقع منه ذنب البتة من صغير أو كبير ؟ كيف وأنبياء الله صلوات الله عليهم وسلامه الذين هم أشرف خلق الله سبحانه وتعالى قد اختلف فيهم أهل العلم هل نالوا هذه الدرجة أم لا ؟ فاعلم أن هذا أمر ممكن غير مستحيل ثم هو هين والله يختص برحمته من يشاء . ثم من شرط التوبة أن لا يتعمد ذنباً ، فأما إن وقع منه بسهو أو خطأ فهو معفو عنه بفضل الله تعالى ، وهذا هين على من وفقه الله تعالى .

فإن قلت : إنما ينعنى من التوبة أنى أعلم من نفسى أنى أعود إلى الذنب ولا

أثبت على التوبة فلا فائدة فى ذلك ؟

فاعلم أن هذا من غرور الشيطان ، ومن أين لك هذا العلم فعسى أن تموت تائباً قبل أن تعود إلى الذنب ، وأما الخوف من العود فعليك العزم والصدق فى ذلك وعليه الإتمام فإن أتم فذاك المقصود من فضله وإن لم يتم فقد غفرت ذنوبك السالفة كلها ، وتخلصت منها وتطهرت وليس عليك إلا هذا الذنب الذى أحدثته الآن ، وهذا هو الربح العظيم والفائدة العظيمة الكبيرة فلا يمنعك خوف العود عن التوبة ، فإنك من التوبة أبداً بين الحسنين والله ولى التوفيق والهداية فهذه فهذه .

وأما الخروج عن الذنوب والتخلص منها : فاعلم أن الذنوب فى الجملة ثلاثة أقسام . أحدها : ترك واجبات الله سبحانه وتعالى عليك من صلاة وصوم أو زكاة أو كفارة وغيرها فتقضى ما أمكنك منها .

والثانى : ذنوب بينك وبين الله سبحانه وتعالى كشرب الخمر وضرب المزامير وأكل الربا ونحو ذلك فتندم على ذلك وتوطن قلبك على ترك العود إلى مثلها أبداً .

والثالث : ذنوب بينك وبين العباد وهذا أشكل وأصعب وهى أقسام قد تكون فى المال وفى النفس وفى العِرض وفى الحرمة وفى الدين .

فما كان فى المال : فيجب عليك أن ترده عليه إن أمكنك ، فإن عجزت عن ذلك لعدم وفقر فتستحل منه ، فإن عجزت عن ذلك لغيبة الرجل أو موته وأمكن التصديق عنه فافعل ، وإن لم يمكن فعليك بتكثير حسناتك والرجوع إلى الله بالتضرع والابتهاال أن يرضيه عنك يوم القيامة .

وأما ما كان في النفس : فتمكنه من القصاص أو أوليائه حتى يقتص منك أو يجعلك في حل ، فإن عجزت فالرجوع إلى الله سبحانه وتعالى والابتهاج إليه أن يرضيه عنك يوم القيامة .

وأما في العرض : فإن اغتبت أو بهت أو شتمته فحقت أن تكذب نفسك بين يدي من فعلت ذلك عنده ، وأن تستحل من صاحبه أن أمكنك هذا إذا لم تخش زيادة غيظ أو هيج فتنة في إظهار ذلك أو تجديده ، فإن خشيت ذلك فالرجوع إلى الله سبحانه وتعالى ليرضيه عنك ويجعل له خيراً كثيراً في مقابلته والاستغفار الكثير لصاحبه .

وأما الحرمة بأن خنته في أهله أو ولده أو نحو ذلك فلا وجه للاستحلال والاطهار لأنه يولد فتنة وغيظاً بل تتضرع إلى الله سبحانه ليرضيه عنك ويجعل له خيراً كثيراً في مقابلته ، فإن أمنت الفتنة والهيج وهو نادر فتستحل منه .

وأما في الدين : بأن كفرته أو بدعته أو ضلته فهو أصعب الأمور فتحتاج إلى تكذيب نفسك بين يدي من قلت له ذلك ، وأن تستحل من صاحبك إن أمكنك وإلا فالابتهاج إلى الله تعالى جداً والتقدم على ذلك ليرضيه عنك .

وجملة الأمر : فما أمكنك من إرضاء الخصوم عملت وما لم يمكنك رجعت إلى الله سبحانه وتعالى بالتضرع والابتهاج والتصدق ليرضيه عنك فيكون ذلك في مشيئة الله سبحانه يوم القيامة والرجاء منه بفضله العظيم وإحسانه العميم إنه إذا علم الصدق من قلب العبد فإنه يرضى خصمائه من خزنة فضله . فهذه هذه .

« فصل »

ثم اعلم يقيناً أن هذه العقبة عقبة صعبة أمرها مهم وضررها عظيم .
فلقد بلغنا عن الأستاذ أبي إسحاق الأسفرائيني رحمه الله وكان من الراسخين في العلم
العاملين به أنه قال : دعوت الله سبحانه ثلاثين سنة أن يرزقني توبة نصوحاً ثم
تعجبت في نفسي ، فقلت : سبحان الله ! حاجة دعوت الله فيها ثلاثين سنة
فما قضيت إلى الآن ، فرأيت فيما يرى النائم كأن قائلاً يقول لي : أنتعجب من
ذلك ؟ أتدري ماذا تسأل الله ؟ إنما تسأل الله سبحانه تعالى أن يجبك ، أما سمعت
قوله تعالى : ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ ، أفهذه حاجة هينة؟
فانظر إلى هؤلاء الأئمة واهتمامهم ومواظبتهم على صلاح قلوبهم والتزود لمعادهم .
وأما الضرر المخوف في تأخير التوبة فإن أول الذنب قسوة وآخره والعياذ بالله شئوم
وشقوة ، فإياك أن تنسى أمر إبليس وبلعم بن باعوراء إذ كان مبدأ أمرها ذنبا وآخره كفرا
فهلكا مع الهالكين أبدا الآبدين ، فعليك رحمك الله بالتيقظ والجهد عسى أن تخلص من
قلبك عرق هذا الإصرار ، وتخلص رقبتك من هذه الأوزار ولا تأمن قساوة القلب من
الذنوب ، وتأمل حالك ، فلقد قال بعض الصالحين : إن سواد القلب من الذنوب ،
وعلامه سواد القلب أن لا تجد للذنوب مفرعاً ولا للطاعة موقعا ولا للموعظة منجعا
ولا تستحقرن من الذنوب شيئا ، فتحسب نفسك تائبا وأنت مصر على الكبائر .
فلقد بلغنا عن كهمس بن الحسن أنه قال : أذنبت ذنباً فأنا أبكي عليه منذ أربعين
سنة ، فقيل : ماهو ياأبا عبدالله؟! قال : زارني أخ لي في الله فاشترت له سمكا
فأكل ثم قمت إلى حائط جاري فأخذت منه قطعة طين فغسل بها يده ، فناقش
نفسك وحاسبها وسارع إلى التوبة وبادر ، فإن الأجل مكتوم والدنيا غرور والنفس
والشيطان عدوان ، وتضرع إلى الله سبحانه وابتهل إليه واذكر حال أئينا آدم عليه السلام
خلقته الله تعالى بيده ونفخ فيه من روحه وحمله إلى جنته على أعناق الملائكة لم يذنب إلا
ذنبا واحداً فنزل به منازل ، حتى روي أن الله تعالى قال له : يا آدم ! أي جار كنت
لك ؟ قال : نعم الجار يارب ! قال : يا آدم ! أخرج من جوارى ، وضع عن رأسك
تاج كرامتي فإنه لا يجاورني من عصاني ، حتى إنه فيما روى بكى على ذنبه مائتي

سنة حتى قبل الله توبته وغفر ذنبه الواحد . هذا حاله مع نبيه وصفيه في ذنب واحد فكيف حال الغير في ذنوب لا تحصى ؟ وهذا تضرع التائب وابتهاله فكيف بالمصر المتعسف ؟ ولقد أحسن من قال :

يخاف على نفسه من يتوب
فكيف ترى حال من لا يتوب

فإن تبت ثم نقضت التوبة وعدت إلى الذنب ثانيا فعد إلى التوبة مبادراً ، وقل لنفسك : لعل أموت قبل أن أعود إلى الذنب هذه المرة ، وكذلك ثالثاً ورابعاً ، وكما اتخذت الذنب والعود إليه حرفة فاتخذ التوبة أيضاً والعود إليها حرفة ولا تكن في التوبة أعجز منك في الذنب ولا تياس ولا يمنعك الشيطان من التوبة بسبب ذلك فإنه دلالة الخير ، أما تسمع قوله صلى الله عليه وسلم : «خياركم كل مفتن تواب» أى كثير الابتلاء بالذنب كثير التوبة منه والرجوع إلى الله جل جلاله بالندامة والاستغفار وتذكر قوله سبحانه : ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ فهذه هذه وباللغة التوفيق . انتهى مقاله الغزالي رحمه الله في باب التوبة .

وروى الإمام أحمد عن عبدالرحمن بن السلماني قال : اجتمع أربعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهم : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بيوم» فقال الآخر : أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، قال : وأنا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بنصف يوم» فقال الثالث : أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : نعم ، قال : وأنا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بضحوة» ، قال الرابع : أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، قال : وأنا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر بنفسه» . راجع التفسير لابن كثير ١ / ٤٦٤ .

هذا آخر

ماتيسر لنا في هذا الكتاب ، وما توفيقى إلا بالله ، اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعود بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .
وصل اللهم وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

أبوظلحة محمد يونس عبدالستار

« فهرس الكتاب »

ص

الموضوع

- كلمة تقريظ : لفضيلة الشيخ أبي بكر جابر الجزائري الواعظ بالحرم النبوي الشريف ٤
- تقريظ فضيلة الشيخ عبيدالله محمد أمين كردي - حفظه الله - ٥
- بين يدي الكتاب لفضيلة الشيخ الدكتور محمد المسعودي - الجامعة الإسلامية ٧
- المقدمة ٩
- الباب الأول : المسلم يؤجر على المرض حتى الشوكة يشاكها الخ (مبحث نفيس جدا)** ١١
- الباب الثاني : الصبر على الأمراض والنواب (مبحث نفيس جدا)** ٣٧
- قال المؤلف : بينما نحن في الحرم النبوي الشريف ذات يوم ٤٨
- وفيه قصة رجل مقطوع اليدين إلى الإبطين (قصة نفيسة جدا) ٤٨
- صبر سيدنا أيوب عليه السلام على المرض الذي أصابه ، وفي ذلك ذكرى للذاكرين . ٥١
- صبر سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على شدة الحمى ٥٥
- صبر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على الأمراض ٥٦
- صبر أهل قباء والأتصار على الحمى ٥٦
- صبر امرأة أنصارية على داع الصرع ٥٧
- صبر أبي بكر وأبي الدرداء رضي الله عنهما ٥٨
- صبر معاذ وأهله على الطاعون ، وصبر عبدالله بن مسعود وتوكله ٥٩
- صبر أبي عبيدة والمسلمين على الطاعون ٦١
- فرح أبي عبيدة بالطاعون ٦٢
- صبر زيد بن أرقم رضي الله عنه على فقد بصره ٦٣
- الباب الثالث : جواز شكوى المريض** ٦٥
- الباب الرابع : كراهية تمنى الموت لضر أصابه** ٧١
- الوعيد على من قتل نفسه لضر أصابه ٨٢
- الباب الخامس : في عيادة المريض والأجر عليها (مبحث نفيس جدا) ..** ٨٧
- فيما يقوله المريض ويقال عنده ويقرأ عليه وسؤاله عن حاله ١٠٢
- في تخفيف الجلوس وقلة الصخب عند المريض (مبحث نفيس جدا) ١٠٩
- في الثناء على المريض بمحاسن أعماله ونحوها إذا رأى منه خوفا ليذهب خوفه ويحسن ظنه بربه سبحانه وتعالى ١١٥
- فيما يقول من آيس من حياته ١٢٠
- الباب السادس : في كتابة الوصية** ١٢٣
- ما ينبغي أن تتضمنه الوصية ١٢٧

- ١٢٨ وصية نبينا عليه الصلاة والسلام حين حضره الوفاة
- ١٣٠ قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو على الفراش
- ١٣١ وصية عمر رضي الله عنه وهو على فراش الموت
- ١٣٢ قول حذيفة رضي الله عنه وهو على فراش الموت
- ١٣٣ طلب عبادة رضي الله عنه من أهله وجيرانه الاقتصاص ووصيته حين حضره الموت ...
- ١٣٤ قول أبي ذر رضي الله عنه ووصيته حين حضره الموت
- ١٣٥ هذه وصية عثمان رضي الله عنه
- ١٣٩ من أحب الدفن في الأرض المقدسة أو نحوها وأوصى أن يدفن في موضع فلان .
- ١٤٦ ثلاث كان يحبها الإمام مالك رحمه الله
- ١٤٧ الباب السابع : باب الاستغفار (مبحث نفيس جدا)
- ١٥٩ قد دعا الله تعالى إلى مغفرته : من قال أنا ربكم الأعلى وغيره
- ١٦١ باب التوبة مفتوح ماكان الروح في الجسد
- ١٦١ يا حسرتنا ! أخلق هذا الحسن للنار
- ١٦٢ فما سمعته ولا سمعت أحداً من العلماء يقول : إن الله يقول لذنب : لا أغفره
- ١٦٥ الباب الثامن : باب التوبة (مبحث نفيس جدا)
- ١٧٤ فهرس الكتاب

○

○○

○○○

○○○○

○○○○○

○○○○○

○○○

○○

○

